شخصيات مجمعية

حسن حسنى عبد الوهاب
فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة
للدكتور مهدى علام

سيدى الرئيس ،

سيداتى سادتى ،

باسم مجمع اللغة العربية بالقاهرة باسم رئيسه الدكتور إبراهيم مدكور ؛ وباسم جميع أعضائه ، أتشرف بتقديم التحية لذكرى الفقيد العظيم .

وبما أنه « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » فليس فى وسعى أن أقف أمامكم لأحدثكم عن هذا العملاق الذى ملأ الدنيا بعلمه وأدبه .

فأنا لا أستطيع أن أدعى أن أحدثكم عن الأسرة الكريمة التى نشأ فيها حسن حسنى عبد الوهاب ، وما كان لها من أثر فى نشأته ؛

ولا أستطيع أن أدعى أن أحدثكم عن المدارس والمعاهد التى تلقى فيها العلم ، طفلا وصبياً ويافعاً ، سواء فى تونس أو فى فرنسا ؛

ولا أستطيع أن أدعى أن أحدثكم عن الوظائف التى تقلدها وأقام كيانها : ووضع لها التقاليد والقوانين التى سارت عليها فى ولايته ومن بعدها .

ولا أستطيع أن أدعى أن أحدثكم عن مؤلفاته التى شملت الأدب : والنقد ، والحضارة ، والسياسة ، والاقتصاد ، والدين ، وتاريخ العلماء والمدن والديار كما شملت تحقيق التراث ، واللغة ، والموسيقى ، والآثار ، والفنون .

لا أستطيع أن أفعل شيئاً من ذلك ، لأن الزمن المتاح لى لايسمح بمثل هذه الدراسة اللائقة بمقام حسن حسنى عبد الوهاب . ولأننى لا أنصفه إن أنا أشرت إلى هذه الأمجاد إشارات خاطفة .

ولعل هناك سبباً أهم من هذا وذاك : وهو أن غيرى من المتحدثين سيتولى هذه

النواحى خيرًا مما يمكننى أن أفعل . ولهذا أرى أن الأليق بى أن أتكلم عن حسن حسنى عبد الوهاب فى حياته لمجمعية التى دامت من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٦٨ ، أكثر من ثلث قرن من الوفاء للغة والأدب والعروبة ، والولاء العلمى للمجمع الذى اختاره من أول يوم إنشائه ، إذ كان أحد الأعضاء الخمسة الممثلين للبلاد العربية ، إلى جانب زملائهم المصريين والمستعربين من المستشرقين .

لقد سبق أن كتبت عن الفقيد العظيم مرتين ، مرة فى كتابى « المجمعيون فى ثلاثين عاماً » سنة ١٩٦٦ ، ومرة ثانية فى كتابى « المجمعيون فى خمسين عاماً » الصادر بمناسبة العيد الخمسينى للمجمع سنة ١٩٨٤ ، وما كان أيسر علىّ أن أرجع إلى إحدى الترجمتين اللتين كتبتهما عنه فى هذين الكتابين . ولكن عندما شرفنى المجمع أن أنوب عنه فى الحديث إليكم ، أخذت نفسى بمقياس آخر : هو أن أعود إلى محاضر جلسات المجمع ، منذ نشأته حتى تاريخ وفاة الفقيد ، لأرصد كل ما كان له من مساهمات علمية فى المجمع مجلسه ومؤتمره .

وليس من فتنة تزكية النفس ـ أستغفر الله ـ بل من قبيل الاعتراف بنعمة الله تعالى ، أننى تصفحت نحو عشرين ألف صفحة من سجلات المجمع ، لأستخرج منها التاريخ العلمى الصادق لمساهمة الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى حياة مجمع القاهرة .

ففى الجلسة الأولى للدورة الثانية (وكان قد اعتذر عن غيابه فى الدورة الأولى) ألقى الكلمة التالية :

« إنى لأشعر باغتباط وارتياح كبيرين يترددان فى أعماق قلبى ، لحضور جلسات الدورة الثانية لهذا المجمع الذى يعدّ بحق من أجل مفاخر العهد الحديث فى تاريخ مصر المجيد . ومع ذلك أرانى مضطرًا إلى إبداء اعتذارى إلى جانب من الخجل ، لتخلفى عن جلسات الدورة الأولى ، لأسباب لم أقو على تذليلها ، راجيًا الصفح وقبول المعذرة » .

« ويحق لى بعد ذلك أن أتقدم إلى حضراتكم بالإعراب عن تقديرى العظيم لهذه الفرصة الثمينة التى أُتيحت لتعاوننا الوثيق فى العمل الثقافى بهذا المجمع الما مون

الذى هو من أحاسن مبتكرات حضرة — صاحب الجلالة ، ملك مصر المعظم ، أعزه الله وأدامه .

« وإنى لفخور بأن أحمل إلى حضراتكم تحية البلاد المغربية عموماً وإعجابها ، وتونس خصوصاً ، مظهراً بذلك حسن تقديرها وإكبارها للمجهود المضنى الذى تقدمونه للإحياء والمحافظة على اللغة والأدب وكذا تنمية تراثنا الغالى ، ووقايته من أعراض الجمود وأدواء الضمور وعلل الخمود .

« أسأل الله العلى القدير أن يكلل عملكم بالنجاح ، ويقرن سعيكم بالتوفيق » .

وفى الجلسة الثانية عشرة ، فى الدورة نفسها (سنة ١٩٣٥) ألقى الكلمة التالية :

« أرجو من حضرة صاحب المعالى الرئيس ، وحضرات المحترمين أعضاء المجمع أن يسمحوا لى بالكلام فى مسألة من الخطر بمكان : ذلك أنى رأيت أمس على هذا اللوح الأسود الذى أمامنا ، عبارة استرعت نظرى ، واستحوذت على فكرى : وهى أن المجمع من يوم اجتماعه فى هذا الدور حتى الآن (أى منذ خمسة عشر يوماً) أتم النظر فى تسعين كلمة ، أقول : تسعين كلمة ، وأكررها ، حتى نعرف مدى — الشوط الذى قطعناه فى هذا الدور الثانى . أخذت أفكر فى عدد الألفاظ والمصطلحات التى سننجزها على هذا الحساب . إلى آخر الدورة ، فوجدت أننا سنتم النظر فى ٢٧٠ أو ٣٠٠ كلمة ، على فرض أن عدد جلساتنا سيبلغ خمسا وثلاثين جلسة . فهل هذه هى النتيجة التى تترقبها منا مصر والعالم العربى بأسره ؟ إنى أقترح أن تعدد اللجان التى تنظر فى المصطلحات والكلمات حتى يتيسر لنا إبراز مقدار كبير من الأعمال ، وأن تتخذ طريقة غير الطريقة التى سلكناها من قبل » .

ثم واصل كلامه قائلاً :

« المطلوب تقسيم العمل بيننا ، حتى يكون لكل منا عمل . فلتكن لجنة للجزازات ، ولجنة أخرى أو لجنتان للفحص عن الكلمات والمصطلحات ، ولجنة لبحث الأصول ، وهكذا لننجز فى هذا الدور أكبر ما يستطاع إنجازه » .

ومع أنه قيل فى الرد عليه : إن الخمسة عشر يومًا الماضية لم تكن خاصة بالبحث فى الألفاظ ، بل كان يتخللها أعمال أُخرى فإن اقتراح حسن حسنى عبد الوهاب قد أخذ به ، وانقسم المجمع إلى عدة لجان عاش (رحمه الله تعالى) حتى رآها أكثر من العشرين لجنة .

وفى الجلسة الرابعة والثلاثين من الدورة نفسها (٦ أبريل سنة ١٩٣٥) تقدم بالاقتراح الآتى :

« لا شك فى أن رغبة هذا المجمع متجهة للمحافظة على اللغة العربية وجمع شتاتها وإصلاح شواردها ، وتهذيب مواردها ... إلى غير ذلك من الأعمال العائدة إلى رفع شأن هذه اللغة ، وإعدادها لمسابقة اللغات الحية فى مضمار التقدم والحضارة ، بعد أن مضت عليها أجيال وأجيال وهى فى خمود وجمود لا تشعر بما كان يجرى حولها من النهضات المختلفة فى العلوم والفنون والآداب والنظامات الاجتماعية إلى أن أمست — وهى من أقدم اللغات — فى أُخريات لغات التمدين بين الأُمم .

« ولكى تصل لغتنا الشريفة إلى المستوى اللائق بها بين اللغات الحيـة ، ينبغى للمجمع أن يعيد النظر فى أُصول هذه اللغة وقواعدها ، ومراعاة ما هو جار فى أُصول اللغات الأُخرى ، عسانا نهتدى بذلك إلى إدراك سر وقوفها طوال القرون الأخيرة ، لكى نعمل على تلافيه ، ونعيد لها خصائصها من حيث قوة الامتصاص والاستنباط ، والتخريج والصقل ، بطريقة تكفل لنا طبع الكلمات المستحدثة فيها على غرار الفصيح القديم ، صيانة لها من اللوثة وتسرب الدخيل .

« وليس يكفى لتحقيق هذه الرغبة المتعلقة بتوحيد اللغة مجرد الاقتصار على إيجاد أسماء لمسميات كثيرة أوقليلة ظهرت فى نوم لغتنا . وفى اللغة نفسها علل عارضة ننخر عظام هـذه الوحدة ، وهى أشد ضراوة عليها من النقص ، وإحدى هذه العلل الطاغية اختلافنا فى التلفظ بالكلمات

« والسبب فى ذلك ، على ما يبدو لى ، إغفال لغوييننا لضبط مخارج الحروف ، وتركها هدفًا لعوامل التأقلم (l'acclimatior) حتى اختلف النطق ، وفسدت اللهجات . ونحن نعلم أن اللهجات

قد تتحول ، مع الغفلة عنها وفعل الزمن إلى لغات ، كما حدث ذلك فى الأصل السامى المنقـرض الذى تفرغت منـه الألسن وكذلك فى اللغة اللاتينية التى تشعبت منها الإيطالية ، والإفرنسية ، والإسبانية ، وما إليها . وهذا الخطر بعينه هو الذى يتهدد اليوم العربية بالانقراض أو على أقل تقدير بالتحول .

« ونحن نعتقد أن أهم وظيفة للمجمع تقوم على تلافيه ، عملًا بالقاعدة المعروفة (درءُ المفسدة مقدم ع جلب المنفعة) ، ودرؤها لا يقتضى جهدًا ولا كلفة ، سوى التفكير فى وضع قواعد ثابتة للفظ الحروف نطقًا وكتابة ، بلهجة فصحى مختارة ، يقررها المجمع .

« ولا خفاء أن اللغات الكبيرة الواسعة الانتشار لا يشاد بناؤها ولا يخلد إلَّا على أساس توحيد النطق ، وإصلاح النبرة . وهذا ما أغفله أئمة العربية من قبل ، ارتكانًا إلى مخـارج الحروف فى تلاوة الكتاب العزيز ، دون أن يدخلوها ضمن قواعد اللغة . فكان ذلك الإغفال سببا مباشرًا فى حدوث اللهجات المختلفة باختلاف الأقاليم والقبائل العربية التى نزحت إليها .

« ونحن إذا لم نبادر إلى تلافى هـذا الخطر الشائع ، فقد لا يطول بنا العهد حتى تصبح هذه اللهجات لغات إقليمية مختلفة تقبر فيها عربيتنا — لا قدر الله وقد أجتمعنا لكى نسعى لها فى الإحياء والتجديد .

« وكان هذا الخطر نفسه يتهدد أيضًا من قبل اللغتين الألمانية والإنكليزية . فعمد علماء اللغتين إلى تلافيه ، بوضع قواعد صحيحة مضبوطة لتقويم ألسنة المتكلمين بها ، وتمرينها على التلفظ باللهجة الفصيحة التى تقررت للمدرستين الألمانية والإنجليزية فقد يوجد فى ألمانيا طريقة (Bühnena-ussprache) أى (نطق المسرح) كما يوجد فى إنجلترا طريقة (Broad-castingcompany) ، وهى التى عليها العمل والإلقاءُ فى المعاهد الدراسية وأندية الأدب ، ومراكز الدعاوة ، ومسارح التمثيل على مقاول الأساتيذ والخُطباء والشعراء والممثلين وكذا توفق الشعبان الكبيران إ توحيد لسانيهما بطريقة إحكام التلفظ وإصلاح النبرة . وسهل على المستمعين فى عامـة الشعبين تقليدهم فى النطق نطقًا صحيحًا لا لوثة فيه ، وتفهم كل ما يلقى إليهم دون التباس .

« هـذا ما أردت أن أفزغ به إليكم يا حضرات الزملاء الأكرام ـ فيما أراه ضروريًّا للمحافظة على لغتنا ، وصيانة وحدتها من التفرق إلى اللهجات المختلفة التى سطت عليها ، وذلك بمثابة ما نسعى إليه من العمل إلى وحدة الاصطلاح على استعمال المفردات . ولا أغالى إذا صارحتكم بأن لهجاتنا قد تباعدت إلى حدٍّ ما ، فإن من يتكلم بلهجة إقليمية لا يكاد يفهم المتكلمين باللهجات الأخرى . ولدينا على ذلك دلائل كثيرة قاطعة . ويكفى أن أشير إلى واحد منها ، على سبيل المثال .

« فإن النطق بحرف الجيم يختلف اختلافًا بيِّنًا فى اللهجات العامية المعروفة ، واختلافه يكاد يغير مفاهيم الكلمات التى يكون هذا الحرف من بنيتها ، فهو فى مصر بلفظ (كَ كافا معقودة) ، وفى الحجاز ينطق (تش جيما معطشة) ، وفى تونس (جيما لينة) ، وفى الجزائر ومراكش (دج جيما مشبعة) ، وفى العراق بلفظ (القاف) جيما ، والكاف حرفا وسطًا بين التاء والسين ، وهلم جرا

« هذا مثال مصغر من التبلبل الواقع فى اللغة العربية التى أستصرخكم لإسعى تلافيه ، حفاظًا لكيان اللغة ، بتوحيد النطق بألفاظها ، وتمهيدًا لتلقينها لعامة أقوامنا ومتعلمينا ، بوسائط الإلقاء ، والإذاعة ، وهى أيسر من طريقة التدوين والكتابة ، خصوصا بعد استعمال المذياع .

« لذلك أقترح على المجمع المحترم أن يقرر تأليف لجنة للبحث فى إيجاد طريقة محكمة لضبط مخارج الحروف العربية طبق أصولها ، والاستعانة على ذلك بالمؤلفات القديمة الموضوعة فى علم التجويد والقراءات وكذلك البحث فى النطق الحاصل فى اللهجات الدارجة ، واختيار ما يراه منها صحيحًا وملائمًا للنطق الفصيح بالعربية »

وقد أثار هذا الاقتراح مناقشات واسعة وهامة ،اشترك فيها من الأعضاء الأساتذة : أحمد الإسكندرى ، ومنصور فهمى ، وعلى الجارم ،ونالينو ،وجب، وإبراهيم حمروش ، وأحمد العوامرى ، وعبد القادر المغربى ، وحسين والى ، ومحمد الخضر حسين ، وفارس نمر . وتتلخص ردود الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى قوله :

« الذى أقصده من اقتراحى هو توحيد مخارج الحروف ، فإنى أسمع بعضها فى مصر غير ما أسمعه فى المغرب مثلًا »

« اختلط البحث فيما يظهر ، واقتراحى خاص بمخارج الحروف ، ولا يتعرض للنبرات ، والنبرات شىء والمخارج شىء آخر . والنبرات هى التى لابد من الاختلاف فيها ،تبعًا لاختلاف البيئة ،أما المخارج فلا ».

ثم وافق المجلس على إحالة الاقتراح على لجنة اللهجات ، مع تقرير يقدمه صاحب الاقتراح ، وأن يضم إلى اللجنة الأساتذة : حسين والى ، وأحمد الإسكندرى وأحمد العوامرى ، وعلى الجارم .

وفى الدورة الخامسة (سنة ١٩٣٨) ألقى المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب كلمة فى جلسة الافتتاح قال فيها :

« من بواعث الشرف لى أن أتقدم إليكم ونحن نستهل خطواتنا إلى مرحلة جديدة من مراحلنا السديدة إن شاء الله ؛ ويزيد فى شرفى أن تكون كلمتى معبرة عمَّا تختلج به صدور إخوانى الشرقيين فى أسرة المجمع من العواطف .

« وإنه ليسعدنى حقًّا أن تكون بواكيرها فى هذه اللحظة الطيبة هى الإعراب لكم عن تحيات مباركات ، يزجيها إلى المصريين إخوانٌ لهم يضربون فى كل صقع من أصقاع الشرق ، ثم يجتمعون ، على تباعد الديار ، فى هذه الدار .

« ولا يعزب عنكم أن كل شرقى فى أسرة المجمع لا يبرح أهله ووطنه إلَّا وملء أوطابه تحيات مباركات يزوِّده بها العشيرة والوطن ليقدمها إلى كنانة الله فى أرضه ، حجة جديدة على إخاءٍ أكيدٍ ، وولاءٍ جم ، ووفاءٍ دائم .

« فأنا ـ على أنى أبعد إخوانى الشرقيين صقعًا ، وأقصاهم داراً ـ أقدم ما فى كنانتى وكناناتهم من تحيات مواطنينا إلى مصر المحبوبة محبورًا ومغتبطًا ، ويلوح لى بعد ذلك أن إخوانى الشرقيين ، والمستعربين من أعضاء أسرة المجمع ، يرون أن لا شىء أدخل للسرور على أنفسنا ـ ونحن مستقرون فى بلادنا ـ من تلك الدعوة التى نتلقاها من رئيسنا المحترم ، لنشد الرحال إلى مصر حتى ندخل فى دور جديد من أدوار العمل وذلك أننا نحسُّ فى أكناف هذه الدار المباركة أن ضعفنا يصبح قوة . وأن ركودنا يستحيل حركة دائمة لا هوادة لها . والواقع أن الذى يدفعنا إلى هذا الشعور ، ويمنحنا تلك القوة الفعالة ، إنما هو يقيننا بأننا نؤدى للغتنا الشريفة

ما نعتقد أنه واصل بها إلى الذروة التى انتهت إليها فى خير عهودها ازدهارًا ، وأعمرها بالإنتاج النافع المفيد . ثم يزيد على ذلك إيماننا بأن عملنا المشترك فى سبيل توضيح نفائس هذه اللغة ، وتزويدها بما تستطيع أن تتحلى به من حلى هذا العصر ، إنما هو عمل مشترك أيضًا فى طريق البلوغ بالناطقين بالضاد إلى الشأو الذى تتلاقى آمالهم عنده ، وهو أن يكون إخاؤهم بالغًا من المتانة والقوة الغاية القصوى والمرمى البعيد .

« والحق أقول : إن فى هذا ما أقنع الجميع بأن رسالة المجمع اللغوى ظفرت فى المدة القليلة بحشود حاشدة من المؤمنين بها إيمانًا صادقًا . وستزداد هذه الحشود كلما أتممنا صفحة جديدة من صفحات هذه الرسالة ، حتى لا يبقى فى الشرق العربى من لا يؤمن بها .

« وإنه ليطيب لى ، وأنا فى مقام ذكر رسالة المجمع اللغوى والصفحات التى أتمها من سِفرها الضخم أن أفصح لحضراتكم بأننا لا نستطيع أن نذكر لمواطنينا هذه الرسالة إلَّا معترفين لإخواننا المصريين الكفاة ، بأن جهودهم هى التى أنزلتها منازل الكمال ، وأتاحت لها أن تشهد الضوء بعيدة عن الشَّوب والحَوب .

« والحقيقة أن إخواننا المصريين فى أسرة المجمع هم بمكانة الطليعة من المتصدين فى هذا العصر لمباحث اللغة العربية جميعًا ، لأنهم يجمعون الكفاية القادرة إلى الحيوية النادرة ، إلى مزيد إخلاص فى العمل ، ودأب عليه ، وحب له . وتلك هى أسلحة البناة الذين يريدون تشييد أُسس الصرح على أقوى الدعائم ...

« نسأل الله تعالى العلى القدير أن يمهد لنا أسباب التوفيق إلى ما نقصد إليه من إفادة واستفادة ، وأن يحقق آمالنا فى رخاء مصر ، وسعادة الشعوب العربية جميعًا » .

وفى الجلسة التاسعة عشرة ، من الدورة الخامسة ، تكلم الفقيد فى موضوع كتابة الألفاظ الأجنبية بحروف عربية ، فقال :

« لَمَّا عُرض علينا موضوع كتابة الألفاظ الأجنبية بحروف عربية ، قررنا كتابة الجيم اللينة جيمًا ذات ثلاث نقط ؛ وفى اجتماع اللجنة اليوم رأينا الرجوع عن

هذا القرار ، والاكتفاء بالجيم المعروفة ذات النقطة الواحدة ؛ فإن فى ذلك تسهيلًا وتوحيدًا للطريقة ، ولاسيما أن الجيم اللينة ممَّا يأتى فى كلمات قليلة ، فليس ثمة ضرورة تحتم وضع حرفين متغايرين » .

وقد وافق الأعضاءُ على ذلك .

ثم واصل الأُستاذ كلامه قائلًا :

« كذلك بحثنا فى اللجنة (تشCH) فاتفق الخبراء على أنها حرفان ولها نطقان ، ولكن الأُستاذ نلينو يقول بأنها حرف واحد ، ولها نطقٌ واحدٌ ، وسواءٌ أصح هذا أم ذلك ، فإن نطقها فى العربية حرفان . وقد كتبها المصريون كما ينطقونها ؛ فهم يكتبون تشرشل ، وتشمبرلن . ولهذا رأينا فى اللجنة أن يكتب هذا الحرف (CH) جيمًا بثلاث نقط إذا ورد فى الأسماء القديمة الفارسية ، أو التركية ، أو الهندية ؛ وأما إذا ورد فى الأعلام الحديثة فيكتب حرفين : تاء وشينا ، كما يكتبه المصريون » .

واشترك فى مناقشة الموضوع الأب أنستاس الكرملى ، والأُستاذ نلينو ، والأُستاذ على الجارم .

ثم قال الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب « الأفضل كتابتها حرفين : تاء وشينا ، لأننا لا نريد أن ندخل حروفًا جديدة ذات علامات ، بقدر ما يتسع له الإمكان . على أن لى اقتراحًا يوفق بين الرأيين المتنازعين وهى أن تكتب (CH) ونضع بجانبها جيمًا بثلاث نقط و (تشد) ؟ فمن أراد كالمصريين ، أن يكتبها حرفين كان له ذلك ، ومن أراد كتابتها حرفًا واحدًا كتبها جيمًا مثلثة النقط . وبذلك ينحسم الخلاف » .

وعادت المناقشة بين الأساتذة الإسكندرى ومنصور فهمى ، ونلينو ، وجب . وعاد الأُستاذ حسن حسنى عبد الوهاب يقول :

« أقترح الموافقة على أن تكتب (CH) جيمًا ذات ثلاث نقط فى البلاد التى تستعمل هذا الحرف ، وأن تكتب تاء وشينًا فى أسماء البلاد الأوربية وبلاد اللغات الأُخرى مثل اللغة الصينية واليابانية ، بشرط أن تكتب بحروف عربية منقولة عن أصوات الحروف اللاتينية التى اتفق عليها فى الطريقة المسماة (Romagi) لكتابة الأعلام اليابانية . وأما فيما يختص بالأعلام الصينية فيتبع فيها ما يتم عليه الاتفاق فى رسم تلك الأعلام فى الجمارك ومصلحة البريد » .

وانتهى الأمر إلى القرار التالى :

« تكتب (CH) كما فى ((Churchil جيمًا ذات ثلاث نقط فى أسماء البلاد الإسلامية التى تستعمل هذا الحرف ، وتكتب فى الأسماء الأوربية وغيرها تاء وشينًا (تش) » .

وفى الجلسة الثامنة والعشرين ، فى الدورة الخامسة نفسها ، عندما عرض موضوع « الأعلام المبدوءة بأبو أو بنو أو ذو » قال الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب :

« إن العرب قد أقروا استعمال (أبو) مرفوعة فى كل حالات الإعراب . وإليكم دليلًا يؤيد هذا القول : هذا صاحب الكشاف (الزمخشرى) يقول ، عند تفسير سورة أبى لهب : (ولذلك تجرى الكنية على الاسم أو الاسم على الكنية ، عطف بيان . فلمَّا أريد تشهيره بدعوة السوء ، وأن تبقى سمة له ، ذكر الأشهر من علميه . ويؤيد ذلك قراءة من قرأ : يدا أبو لهب ؛ كما قيل على بن أبو طالب ، ومعاوية بن أبو سفيان ، لئلا يغير منه شىء فيشكل على السامع) » .

وفى الجلسة التاسعة والعشرين من هذه الدورة ، دارت مناقشة حول كتابة أسماء البلاد ، فهل تكتب بالحروف العربية وحدها ، أم بالحروف اللاتينية معها . وسأل الأستاذ نلينو : هناك مثلا مدينة ينطق باسمها (لِسْتَر) ولكن تكتب بالإنجليزية (Leicester) فردَّ الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب :

« هبوا إنسانًا كتب فى البريد إلى أطنه مثلًا فهل يجد بُدًّا من كتابة الحروف اللاتينية لهذا العلم ؟ » .

سأل الدكتور منصور فهمى : « نريد أن نعرف وجه الخلاف الآن : أتريدون أن نضع قاعدة عامة : هى أن تكتب الأعلام بالعربية ، وإلى جانبها الأسماء اللاتينية ؟ »

فردَّ عليه الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب قائلًا :

« هذا هو المعروف فى بلاد البلقان والمستعمل فيها . والفرنسيون ينطقون (لوندره) لعاصمة إنجلترا ، ولكنهم يكتبونها فى كتبهم البريدية (London) »

فقال نالينو : « نحتفظ إذًا بالقرار الذى أصدرناه ، على أن نضيف إليه العبارة الآتية : (ويوضح الرسم بالحروف اللاتينية بين قوسين) .

وتتجلى حماسة الفقيد فى الجلسة الثانية والثلاثين من الدورة الخامسة ، حين يتبنى موضوع إصلاح الكتابة العربية . يقول :

« اللجنة التى ألفت أمس من خمرات أعضاء المجمع ستبحث أهم الموضوعات التى تتناولها أعمال المجمع ، وذلك لأن أهمية الكتابة العربية ، وكونها مسايرة للعلم ، تقتضى وجود وسائل لهذه المسايرة والكتابة هى ، كما تعلمون ، أهم وسائل نقل العلم من لغة إلى أخرى . واللجنة التى ألفت أمس ألفت لهذا الغرض ، فنريد الآن تحديد عملها ، ومعرفة وسائلها التى نسير فيها إلى الغاية ؟ بعد أن ألفناها » .

ويرد عليه الدكتور منصور فهمى بأنه يمكن اللجنة أن تستعين بمهندسين وخطاطين والأمر متروك للجنة ، ولا قيد عليها سوى المحافظة على سلامة اللغة العربية .

وعاد الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب يواصل الحديث :

« الأصل فى الكتابة العربية أنها كانت غير منقوطة الحروف ، ثم أدخل النقط على حروفها فى القرن الأول من الهجرة . ورغبتى هى أن يكون المشروع ، مشروع إصلاح الكتابة العربية ، من ابتكار المجمع ومن مهامه . وعليه أن يشرف على وسيلة الإصلاح ، لأنها مهمته ، وأن تكون هذه المهمة هو ما نحدده عملًا للجنة بعد أن ألفت أمس » .

وبعد مناقشة اشترك فيها عدد من الأعضاء ، قال الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب :

« إن وضع النقط فى الحروف من المشكلات ، وأعنى أن الكاتب حين يكتب ينقط الحروف ، فينتقل بنقطها من مستوى إلى مستوى آخر ؛ وهذا مما يجعل الكتابة العربية صعبة » .

وفى الدورة العاشرة احتدم النقاش حول اقتراح أحد الأعضاء أن تحل الحروف اللاتينية محل الحروف العربية . وكان للمرحوم حسن حسنى عبد الوهاب القدح المعلى فى الرد على هذا الاقتراح . ففى

الجلسة الخامسة عشرة (١٩ فبراير سنة ١٩٤٤) قال :

« أظن أنه ليس هنا من بيننا من يعتقد أو يقول بقدسية الكتابة العربية . إنما الذى يعتقده ويقول به جمهور العرب ، ومن ينضاف إليهم من الكاتبين بالحروف المسماة بالعربية ، أن هذه الكتابة — مع حركاتها وأشكالها — أداة موفية بجميع الغرض المطلوب منها ، وهى التعبير عن مخارج الحروف الموجودة فى لغة الضاد ، ولا يخفى على أحد أن الكتابة العربية — استعملت ، لا فى لغتنا العربية فقط ، بل إن كثيرًا من الأمم الإسلامية ، وغير الإسلامية ، استعملتها أيضًا ، وظلت عليها القرون الطويلة من الزمن ، فلا تزال الملايو — من مسلمين وغير مسلمين — يكتبون بحروفنا لغة غير عربية ولا سامية الأصل أيضًا ، وهم لا يقل عددهم عن ستين مليونًا . ولا يزال الفرس يكتبون بها أيضًا ، وهم راضون عنها ، ولم يقلدوا حتى الآن الأتراك فيما عملوا منذ قريب . ولا زال المتكلمون بالأردو ، فى بلاد الهند — وهم زهاء الثمانين مليونًا — يكتبون بالحروف العربية لغة خليطًا من لغات آرية وسامية .

« وها هو ذا التاريخ يثبت لنا أن مسلمى الأندلس أقاموا قرنين من الزمان ، على الأقل ، على كتابة اللغة الإسبانية بالحروف العربية . ومن غريب ما يلاحظ فى هذا الشأن أن أولئك الأندلسيين رسموا كلام الإسبان باللهجة القسطيلية . وفى إسبانيا لهجتان للإسبانية : القسطيلى والكتلانى . وقد رجع الإسبان الآن — فى البحث عن أصول لغتهم — إلى ما كتبه بالرسم العربى أولئك الأندلس . ويسمّى ما كتبوه عرفهم (الأعجمية) AL-jamia ، ويصححون أصولهم على ما كتبه العرب بحروفهم .

« فإذا كانت الكتابة العربية دلت وأفصحت عن أصوات لغات ولهجات أجنبية كثيرة ومتعددة الأصول ، فى مختلف العصور ، فكيف يتصور أنها غير كافية ، أوهى قاصرة ، عن أداء اللغة العربية وتشخيص أصواتها متى استعمل الشكل الموجود فيها ، وأداء ماهو مطلوب

منها تمام الأداء ؟ فإلى هذه الناحية العملية التطبيقية أردت أن أستلفت النظر فقط .

« يقول الأُستاذ عبد العزيز فهمى :

إن الكتابة العربية ليست بعربية ، وإنما هى وثنيـــة ، لأن الذى أوجدها هم الأنباط ـ وهم وثنيون ـ وأقول : إن اللغة العربية أيضاً كانت وثنية حين كان يتكلم بها وثنيون من العرب قبل الإسلام . والحقيقة هى أن الكتابة العربية من وضع الساميين ، كما هو الشأن فى الكتابة اللاتينية التى نقلت برمتها عن الساميين ، وأخذت أشكالها عنهم ، كما يعلم الخاص والعام » .

وفى جلسة الافتتاح للدورة الثامنة عشرة ألقى الأُستاذ حسن حسنى عبدالوهاب التحية الآتية :

« سيدى الرئيس المحبوب ، أيها الإخوان الأعزاء ، أحييكم أطيب التحيات المباركات أحملها إليكم من المغرب العربى الشقيق ، ذلك المغرب الذى يعترف لمصر بالجميل فى مناصرة حقوق العروبة ، وفى تأييد اللغة العربية . وما مجمعكم هذا إلا نفحة من فضل مصر العميم ، وخيرها العظيم . وهاهى ذى البشارات تتوارد من طرف المحيط بفتح أبواب المعاهد العلمية التى شاءت مصر أن تنشأ لربط الأواصل ، وجمع الشتات .

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان كل الظن أن لاتلاقيا

فلتحى العروبة الجامعة ! ولتحى مصر الخالدة !

وبعد غيابه ثلاث دورات ، يعود فى الدورة الحادية والعشرين ، فى الجلسة الخامسة ، ليرى المجمع يدرس الألفاظ الحديثة التى يريد إدخالها فى (المعجم الوسيط) فيدلى بدلوه فى الدلاء :

« ألاحظ بصفة عامة أنه لا ضير على المجمع فى بحث الكلمات الاجتماعية ، وأن تكون قراراته بين ثلاثة : ألفاظ يرخص المجمع فى استعمالها مجرد ترخيص ؛ وألفاظ يرفضها المجمع ، وينهى عن استعمالها ؛ وألفاظ يضعها المجمع وضعاً ، ويتخذ فيها قرارات . وأحب أن أشير إلى أن كلمة (كَدْر) المرقومة ٣٠١ والتى شفعها المجلس بكلمة قدر الوظائف ، يقال لها فى المغرب الجهاز ، وألاحظ أيضاً أن كلمة البدعة التى ساقها الأُستاذ محمود تيمور فى مقابل كلمة الموده لاتؤدى المعنى ، فيما أظن » .

وفى الجلسة الختامية لهذه الدورة ـ الحادية والعشرين ـ عرض الأُستاذ ملاحظاته على ثلاثين كلمة من الكلمات التى اقترحها الأُستاذ محمود تيمور ، فأَقر المجلس إحالتها على لجنة أَلفاظ الحضارة .

وهذه هى الكلمات ، وملاحظات الأُستاذ عليها :

٧ ـ إطار (برواز) : ويسمى جهاز بالمغرب .

٣٤ ـ بنطلون : سروال ، مفرد سراويل ، وهو كذا بالمغرب .

٤٦ ـ مثرد : هو كذا ، وهو مأْخوذ من وعاد الثرد .

٨٥ ـ خشاف : كلمة وردت كثيرًا فى كتب الطب ، وهو كذا فى المغرب .

٩٢ ـ المدخل : هى السفيفة ، وكلمة مجاز ا Couloir

٩٨ ـ الدارة : منية استعملت قديما بهذا المعنى للمنزل فى الضيعة .

١٠٢ ـ الدوار : مجمع بيوت الشعر لأَن شكل وضع البيوت يكون مدورًا .

١٠٦ ـ الرزمة : أَخذها الإفرنج من العربية rasma, rame

.

١٣١ ـ السباك : plumber القصاديرى ـ القصادرى فى التونسى .

١٣٣ ـ سجاف : هو كذا أَيضاً فى المغرب ، ويسمى الحاشية أَى حاشية الثوب ، وهو شريط قماش لحماية أَطراف الثياب ruban.

١٤٩ ـ السنون : ويسمى الذرور فى كتب الطب العربى .

١٧٥ ـ الشليك : (أَى الفراولة) ويسمى بالمغرب توت الأَرض ، وهو كذا فى كتب النبات

١٨٠ ـ الشيك : أَخذه الإفرنج من الكلمة العربية صك وهذا أَنسب Chique

١٨٩ ـ الصفيح : هو القصدير the plate

١٩٣ ـ الصهريج : محل خزن الماء ـ ويسمى المأجل والفسقية .

١٩٤ ـ صوان : (أوالدولاب) ويسمى فى المغرب « الخزانة » من خزن الأدباش .

٢٠٨ ـ طرابيزة : نضد ـ هى المائدة والصفرة والخوان :

٢٣٦ ـ المعاش : فى المغرب يستعمل له كلمة تقاعد . retraite

٢٦٣ ـ الفوطة : فوطة الوجه هى البشكير (راجع نمرة ٢٤ من هذا) .

٢٧٦ ـ المقصورة الأولى : هى بيت الحمام Salle de bain وحوض الحمام Baignoire

٢٩٤ ـ تقنع وتقنيع mascarade : وهى مأخوذة من العربية « مسخرة » .

٣٠٠ ـ مكتبة : هى خزانة الكتب ، حتى لاتلتبس بمحل بيع الكتب .

٣٢١ ـ اللبيخة : صوابة اللبخة ، كما فى كتب الطب Cataplasma

٣٢٤ ـ اللبن الزبادى : هو الرائب كما فى لغة الشام والمغرب

٣٢٦ ـ لطفة ونجفة : هى طرفة وعلوم وإعلاق Bibelot

٣٤٦ ـ الممسحة : هى المكنسة ما يستعمل لمسح الأرض ، كذا فى عموم المغرب .

٣٥٣ ـ الملة ج ملل : هى الملحفة .

٣٧٢ ـ المنسور : هى الكوة .

٣٧٣و٣٨٢ ـ هجين : الخلاسي (بزرميط) المولد من métis أم أهلية وأب أجنبى أو العكس

وقد شكر الرئيس الأُستاذ على ما أبداه من ملاحظات على محاضرة الأُستاذ محمود تيمور ، وقال : إن هذه الملاحظات ستعرض على لجنة ألفاظ الحضارة لمناقشتها .

وفى الدورة الثانية والعشرين ، أبدى الأُستاذ فى الجلسة الثالثة ، ملاحظاته على بعض الألفاظ المقترحة ، فقال :

« استعملت فى المغرب كلمة الخفاف للفلين ، وفى رقم ٩٦ القاشانى عندنا هو الخزف المطلىّ ؛ وكلمة النقاش بمعنى الدهان ، وهو غيره ، فالنقاش صانع صور الجبس والدهان هو الرسام » .

وفى الجلسة الخامسة من الدورة الرابعة والعشرين ، أبدى الملاحظة الآتية على أسماء البلاد التى تبدأ بكلمة (أبو)فقال :

« فى نموذج الهمزة لاحظنا كثرة أسماء البلاد المبدوءة (بأبو) وهى أسماء مصرية ، على حين أن الأسماء المبدوءة بهذه الكنية لاعدد لها فى البلاد العربية . ونظرة فى معجم ياقوت تدلنا على ذلك ، ولا معنى لإيثار الاسماء المصرية بالذكر » .

وتناول المجلس هذا الموضوع بالنقاش ، فى ضوء أن المهم فى المعجم هو بيان تطور الكلمات باختلاف معانيها ، وأن الأفضل هو الإقلال من الأعلام الجغرافية والشخصية .

وهنا أعلن الأُستاذ حسن حسنى عبد الوهاب رأيه قائلا :

« أرى فيما يتعلق بالأعلام الجغرافية أن نقتصر على ما ورد له ذكر فى نصوص الأدب ، ومصادر التاريخ » .

وفى الجلسة المتممة للثلاثين (٢٧فبراير ١٩٥٧) تكلم عن لجنة المصطلحات العسكرية ، قائلا :

« إن المصطلحات العسكرية لاتقل عن الألفين ، واللجنة لم تضع إلا قليلا منها. ولكننا نريد بتقديم هذا القليل لهيئة المجمع أن يقف زملاؤنا على الطريقة التى التى سلكتها اللجنة فى اختيار الألفاظ . ويعتبر هذا البحث كتمهيد لما يأتى ، حتى إذا وافقتم على وجوب استمرار اللجنة فى عملها – وهو عمل مهم يحتاج إلى وقت طويل – استمرت . ولو ظهر ما يستوجب التنقيح فإننا ننقحه » .

وفى الجلسة الخامسة ، فى الدورة المتممة للثلاثين (سنة ١٩٦٤) عرض الأُستاذ

لتصوير بعض الأصوات غير العربية بحروف عربية ، فقال :

« جاء فى التقرير أن حرف (٧)يرمز له فى اللغة الغربية بحرف (فاء) فوقها ثلاث نقط . وأحب أن أشير إلى أن المغرب منذ أول الفتح اتخذ الطريقة القديمة فى الأبجدية ، وحافظ عليها حتى الآن ؛ فقد استعملوا (حرف الفاء) بنقطة واحدة أسفله ، و (حرف القاف) بنقطة واحدة فوقه . ولقد كان هذا متبعاً فى كل البلاد العربية ، كما أثبتت أوراق البردى فى مصر . وفى المغرب استعملوا فى التعريب (الفاء) بثلاث نقط من أسفل للدلالة على حرف (٧) ، و (الفاء) بثلاث نقط فوقها للدلالة على حرف الجاف . كما أنى أؤيد استعمال التاء المربوطة فى نهاية الأعلام التى هى مثل إفريقية وصقلية » .

وكان هذا آخر ما سجلته محاضر الجلسات للفقيد العظيم ، ولم تسجل عنه بعد ذلك إلا ما جاء فى الدورة الخامسة والثلاثين ، فى الجلسة الخامسة للمؤتمر ، وهى الجلسة التى عقدت فى ٣٠ من يناير سنة ١٩٦٩ لتأبين الفقيد العزيز العظيم .

وقد تكلم فى هذه الجلسة الأستاذ زكي المهندس ، نائب رئيس المجمع يومئذ ، والدكتور إبراهيم مدكور ، الأمين العام حينئذ (ورئيس المجمع الآن) ، ثم الأستاذ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، الذى تكلم باسم تونس فى حفل القاهرة ، كما أتشرف اليوم بالحديث باسم مصر فى حفل تونس .

سيدى الرئيس .

لقد أطلت عليكم ، ولكنى أردت أن أنقل إليكم ، وإلى التاريخ ، صورة صادقة لنشاط العلامة حسن حسنى عبد الوهاب ، فى خدمة اللغة العربية ، تحت قبة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، على مدى ثلث القرن الذى ظل فيه عضواً حر الجنان ، طلق اللسان ، رائع البيان .

رحم الله من كان أحد الرواد الذين قام على أيديهم مجمع القاهرة ، الذى أتشرف اليوم بالحديث باسمه إليكم .

وأتشرف بتقديم صورة ضوئية لجميع محاضر الجلسات التى ذكر فيها اسم فقيدنا الكريم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد مهدى علام

نائب الرئيس لمجمع اللغة العربية بالقاهرة

هؤلاء علموني

(١)

للدكتور عبد الحليم منتصر

من الخير أن أبدأ بذكر نفر كريم من كبار أساتذة الجيل ، كان من حظى أن أتعرف إليهم وأن أعايشهم وأناقشهم وأقرأ لهم ، وأتتلمذ عليهم لا فى علم من العلوم ، ولكن فى المعارف العامة ، والمثل العليا ، والخلق الفاضل والأدب الجم والقدوة الحسنة ، ممن سيتواتر ذكرهم فى هذا الحديث من أمثال لطفى السيد وحسين هيكل ، وطه حسين ، وعباس العقاد وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات . وعلى مشرفة ، ومصطفى نظيف ، ومحمد كامل حسين ، وأحمد زكى . إنهم العشرة الكرام أو العشرة الطيبة ، لابد أن أعترف بفضلهم :

١ ـ لطفى السيد :

لقد كان أستاذنا الأكبر ، المرحوم أحمد لطفى السيد ، مديرا لجامعة القاهرة أو الجامعة المصرية ، حين كنت طالباً بها فى أواخر العشرينيات ، وكان مثلا عالياً فى الأخلاق الفاضلة والشخصية العظيمة ، والحفاظ على كرامة العلم والعلماء وعلى استقلال الجامعة . قلم استقالته ، وترك الجامعة بمجرد أن نقل وزير المعارف آنئذ الأستاذ الدكتور طه حسين ، الأستاذ بكلية الآداب من الجامعة إلى الوزارة دون رغبته ، فذهبنا إلى زيارته فى منزله فى مصر الجديدة وكنت معيدًا بكلية العلوم ، فشكر لنا زيارتنا وقال : « المرة الجاية لا أحب أن استقيل وحدى » . ولم يعد إلى الجامعة إلا بعد أن أعيد طه حسين إليها

وعندما أصدرت جمعية خريجى كلية العلوم مجلة رسالة العلم وكنت رئيس تحريرها ، ذهبت مع الدكتور جوهر وكان رئيساً للجمعية عندئذ لإهدائه العدد الأول ، شكر لنا اهتمامنا بتعريب

العلوم الحديثة ونشرها فى مجلة علمية عربية . وسأل الدكتور جوهر عما يعمل فى الغردقة ، وتطرق الحديث إلى الشعب المرجانية ، ونطقها الدكتور جوهر بالضم ، فقال له :تقول مُرجان كالعوام ؛ اسمه المرجان بالفتح. وكان يتفضل بتشريف المحاضرات العامة والمناظرات التى أشارك فيها وأنظمها فى مدرج الطبيعة بكلية العلوم بالعباسية وكان يعجب بإقبال الجمهور على حضور هذه الاجتماعات الأدبية فى كلية العلوم ، ويضيق المدرج الذى يتسع لألف من الحضور ممن يشاركون فى هذه الندوات والمحاضرات التى كان يشارك فيها-عدد كبير من أساتذة الجيل ، حتى إننا كنا نضطر أحياناً لطبع تذاكر للدخول لأن المدرج لايتسع لكل الراغبين .

وقد نظمت وزارة المعارف سنة ١٩٣٨ ، مسابقة للتأليف العلمى ، حظى كتابى « حياة النبات » بالجائزة الأولى ، وأقامت الوزارة حفل تكريم للفائزين فى قاعة الاحتفالات بالجامعة ، وحضر الحفل مدير الجامعة لطفى السيد ، ووزير المعارف الدكتور محمد حسين هيكل ، وطُلب إلىّ أن ألقى كلمة تذاع مباشرة على الهواء ، فإذا بى أنقد الجامعة فى حضرة مديرها فقال لى عاتباً فى نهاية الحفل « كده فقلت له :إن هذه « حرية الرأى » التى علمتنا إياها معاليك ، فانفرجت أساريره ، وفى اليوم التالى أبلغت عميدنا الدكتور مشرفة بما فعلت فقال : « عملت طيب » .

ولكن أستاذنا لطفى السيد أرسل إليه بأنى نقدت الجامعة أمام غير الجامعيين ، فإذا كان هذا يرضيك فأنا راضٍ ، وإذا كان لايرضيك فأنا غير راضٍ وقد جعلتك حكماً ورضيت حكمك ،فأبلغنى الدكتور مشرفة بذلك ، فقلت له إنه أقر ما فعلت. فقال إنه لايغضب من ذلك ، وقد حصل معه شخصياً مثل ذلك ، فراح يحتذر إليه فقال له : « أنا با نبسط لما باشوفكو كده » .

وفى الأربعينيات قرأت ذات يوم فى الجرائد أن مجمع اللغة العربية قد ألف لجنة للحضارة الحديثة ، ووجدت أن معظم أعضائها من أساتذة اللغة العربية فأرسلت إلى أستاذنا الكبير خطاباً أقول فيه :

« إن الحضارة الحديثة قامت على أكتاف العلم ، ولا يستطيع أن يعطى المدلول الحقيق لكلمة فى العلم إلا شخص مارس استعمالها ، وكم أحب يارجال الأدب ، أن تعلموا أن رجال العلم لايقلون عنكم غيرة على اللغة . فأرسل إلى خطاباً ، يدعونى للحضور إلى مكتبه وكان آنئذ فى ميدان التحرير فذهبت إليه فى الموعد المحدد،قائلا السلام عليكم، فأجاب بقوله : وعليكم السلام جاى تنا كف فى إيه «تانى » فقلت أستغفر الله يا معالى الباشا ، فقال استغفر كيف تشاء يمكن يغفر لك . ونظر إلى المرحوم الأستاذ أحمد أمين قائلا : « هل تعرف فلانا ؟ لقد حضرت له كم مجادلة وكم محاضرة فعجبنى واستخسرته فى كلية العلوم » ، ثم نظر إلىّ قائلا « :جوابك عجبنى وأنا غلطان وأنت معك حق » . فقلت له : معاليك أبو الجامعات وأدرى بهذه الأمور . فقال: دعك من هذه الديباجة ، وما ستقوله سينفذ ، وجلست أمامه نتحدث عن تأليف لجان متخصصة من أساتذة الجامعات فى الطب والهندسة والكيمياء والجيولوجيا والأحياء والزراعة وما إليها ، ويحضر كل لجنة عضو أكثر من أعضاء المجمع ليشرف على الصياغة اللغوية ، أما الشرح العلمى فهو من اختصاص خبراء مختصين ، وقد أخذ المجمع بهذا النظام منذئذ ، وكنت أحضر عدداً من هذه اللجان كخبير ، إلى أن انتخبت عضواً ، وكان من أثر هذا النظام أن أخرج المجمع منذئذ عشرات المعاجم بهذه عشرات الألوف من المصطلحات العلمية المعربة والمترجمة .

لقد حضر أستاذنا الكبير عددا من المحاضرات والمناظرات التى كنت أشارك فيها ، فسمعنى أدافع عن العلم ضدالأدب وعن العلم ضد المال وعن الأدب ضد العلم ، وكان تعليقه على دفاعى الأخير عن الأدب « لقد كان ألحن بحجته » . وفى إحدى جلسات المجمع أراد المرحوم الأستاذ توفيق دياب أن يرد المجمع على ما تناولته الصحف من السخرية بقصة الشاطر والمشطور وبينهما طازج التى قيل إن المجمع ابتدعها تعريباً للسندويتش ، وطال النقاش مدة طويلة فنظر إلىّ المرحوم لطفى السيد رئيس المجمع سائلا إياى ما رأيي ؟فقلت فى تلحين مهذب : نحن نعلو على هذا إن أعمالنا منشورة معروفة مسجلة ولا ينبغى أن نجر إلى هذه المهاترات ، لقد كان تعريبنا للسندوتش « شطيرة » .

وفى حفل أقامه أعضاء المجمع لمعاليه فى نادى محمد على بمناسبة بلوغه التسعين من عمره ، جلست إلى جواره ، وإلى جواره من الناحية الأخرى المرحوم الأستاذ زكى المهندس . وكل من يدخل القاعة يأتى للسلام عليه ، فيقف ثم يجلس ويتكرر ذلك بعدد الأعضاء الوافدين ، فيرهقه التعب ويتصبب منه العرق ويقول لقد أتعبتمونى بتكرار انتخابكم لى رئيساً ، فقال المرحوم زكى المهندس إن هذا يشرفنا وإنك تستحق كل التكريم ، فنظر إلىّ معاليه وقال : أظن الكلام داعاجبك ، فقلت : جدًا ونحن بخير مادمت بيننا ، ثم وصل المرحوم الدكتور طه حسين فقمت وأجلسته مكانى ولاحظ الدكتور طه حسين كثرة قيام وقعود الأستاذ لطفى السيد فقال له : ياباشا ، هذا من فعل الأعاجم . يريد أنه لاداعى أن يتعب نفسه بالقيام والقعود .

وكان معاليه مثلا يحتذى فى الحفاظ على مواعيد جلسات المجمع ، فتستطيع أن تضبط ساعتك عند وقت دخوله الجلسة متوكئاً على عصاه فإذا هى الحادية عشرة صباحاً تماماً ، وفى إحدى الجلسات ظللت أعرض المادة حتى الواحدة إلا عشر دقائق فقال بعض الأعضاء إن الزميل قد تعب . فقال متعجباً : تعب ؟ أنا لم أتعب : استمر ولم يرفع الجلسة إلا فى موعدها المقرر الواحدة بعد الظهر تماماً .

سألناه مرة أن يوجه إلينا حكمة أو مثلاً نحتذى به فقال : هل سأقول أعظم أو مثل مما جاء فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف : « المهم القدوة » فإن تكن حسنة سيكون لها أثرها الحسن على البيئة ومن فيها .

لقد شغل رحمه الله عدة مناصب وزارية بعد إدارة المجمع والجامعة ، ولكنه استقال من وزارة صدقى باشا ، ولما سألناه عن أسباب ذلك وكان عدد من الوزراء قد استقال من الوزارة ، وكان الشعب لايريد التفاوض مع الإنجليز . فقال : إذا كان الشعب الذى نتفاوض باسمه لايريد أن أن يتفاوض فبأسم من نتكلم ؟ وهكذا كان أستاذنا لطفى السيد مثالا يحتذى فى حرية الرأى وأدب الحديث والحفاظ على المواعيد ، والاعتزاز باستقلال الجامعة وكرامة العلم والعلماء ، رحمه الله رحمة واسعة .

عبد الحليم منتصر
عضو المجمع

في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء الموافق ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩٨٥ أقام المجمع حفل تأبين للمرحوم الدكتور عبد العزيز السيد عضو المجمع .

وفيما يلي ما القى من كلمات فى الحفل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

سيداتى : سادتى

نودع اليوم زميلا كريما ، له باع طويل فى لجان المجمع المختلفة ، ينتج فيها إنتاجاً غزيراً ويضع بصماته الواضحة على كل فن وكل مجال ولم يتوقف نشاطه داخل جدران المجمع فحسب بل تعداه إلى مجالات أخرى عديدة يعددها علينا زميله وزميلنا الدكتور أحمد السعيد سليمان فى كلمته التالية .

كلمة الدكتور أحمد السعيد سليمان

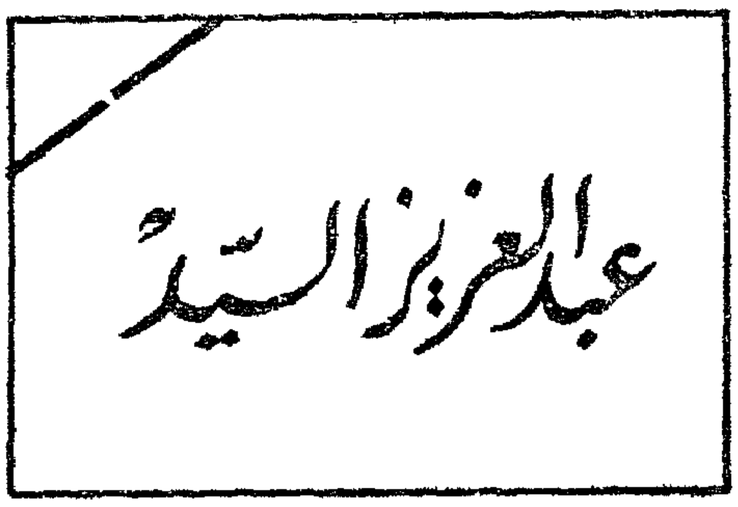

فى تأبين المرحوم الأستاذ الدكتور

سيدى الرئيس

أيها السادة

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى

أرى الأرض تبقى والأخلاءُ تذهبُ

أخلاى لو غيرُ الحمام أصابكم

عَتبتُ ولكن ما على الموت معتب

كان الله لمجمعنا المرزأ ، ونسأَ فى أعماركم أيها السادة الأعضاء ، وهيأَ لكم أسبابَ الإنجاز المَتروِّى لمعجماتكم وأحياكم أطيب حياة حتى تروها كلها مطبوعة متداولة .

لقد رأيتُ المنيّة أبشَع اختراماً ، وأشد خبطاً فى مجمعنا منها فى مجامع القوم فى أوربا ، وكأن مقسِّم الحظوظ سبحانه وتعالى قد أرخى لهم حبال العيش وجنبهم مخاطر قحط العلماء ، فلا يكاد يموت عضو الأكاديمية هناك حتى يخلفه خيرٌ منه ، فلا العددُ ينقص ولا الخطى تقصر ولا المشروعاتُ تتواضع بل يأتى الخلف بما لم يستطعه السلف لأن الخلف هناك أكمل أداةً وأوسع استيعاباً ، وأحكم منهجاً .

ونحن ، يموت ميتِّناً فلا يخلفه من يدانيه إلا بشق النفس وطول التحرى والمدارسة .

والمنيّة ، على هذا القحط ، رصد ، تتلقط المجمعين مثنى وثلاث .

كأنهُم لم يعرف الموتُ غيرهم

فثكلٌ إلى ثكل وقبر إلى قبر

فى أقلّ من ثمانية أشهر هوى أربعة من نجوم المجمع : الشاعر محمد عبد الغنى حسن ، وعالم الاقتصاد الدكتور حسين خلاف ، وعالم الرياضة والتربية الدكتور عبد العزيز السيد ، وفضيلة العالم المفكر الشيخ أحمد حسن الباقورى .

وُلد ثالثُ هؤُلاء النجوم الأربعة ، المغفور له الدكتور عبد العزيز السيّد سنة ١٩٠٧ فى قرية طه شبرا بمحافظة المنوفية ، جده أزهرى ووالده درعمى وخاله مفتش على مدرسى اللغة العربية ، فلا جرم أن أُشربَ فى قلبه هذه اللغة وأحب شعرها فما زال يقرأ ويحفظ حتى حصلت له الملكة فقال شعراً من شعر الشباب ، رأى حين تقدمت به السنّ ألا ينشره ، ولكنه كان كان ينشده لخلصائه فيلذونه ويطربون له .

تلقى رحمه الله تعليمه الابتدائى ، بمدرسة العقادين وأتمّ تعليمه الثانوى بمدرسة الزقازيق سنة ١٩٢٤ ، ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا متخصصا فى الرياضيات وتخرج فيها سنة ١٩٢٨ وقد كان متميّزا منذ صدر شبابه فعُيِّن غبّ التخرج مدرسا للرياضة فى مدرسة شبرا الثانوية ، وكانت وزارة المعارف فى ذلك الزمان تعجم عيدان المتخرجين فى مدارسها العليا فتطرح بغير الصلاب منهم بعيداً عن القاهرة أو تهوى بهم إلى التعليم الابتدائى فلا يرقون إلى التعليم الثانوى إلا بعد بضع سنين.

وما لبث الأُستاذ عبد العزيز السيد أن بذّ زملاءه من مدرسى الرياضة وفاقهم حتى لم تعد المدارس الثانوية تسعه أو تليق به ورُئى أن ينتفع بعلمه الرياضى وبفنه التربوى فى الكلية ، الحربية فَنُقل وهو بعدُ فى ميعة الشباب رئيساً لقسم الرياضة بالكلية الحربية

ثم اختبر لحسن بلائه فى التدريس بالكلية الحربية عضوا فى بعثة إلى أمريكا فحصل سنة ١٩٤٨ على درجة الدكتوراة فى فلسفات التربية المختلفة وأثرها فى مناهج الرياضة وتدريسها ، فلما عاد موفقا اقتعد كرسى الأُستاذية بالمعهد

العالى للتربية ، ثم نُقل مديرا عاما للتعليم الابتدائى بوزارة التربية والتعليم

ثم مضى مُصعدا فى المناصب العليا محرزا ثقة الدولة ، تكلفه جسام الأُمور فينهض بها بكفاية ، وحسن تأَت ، ولباقة اتصال ، ومن ذلك أنها كلفته إنشاء فرع لجامعة القاهرة بالسودان فأَنشأَه وربطه ربطا وثيقاً بجامعة القاهرة وولى أَمره أَربع سنين من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٩ ، وما زال هذا الفرع يؤَدى خدماته العلمية الجليلة فى جنوب الوادى ،

فلما وُسِّد بعد ذلك رياسة جامعة الإسكندرية كُلِّف أَن ينشىء جامعة بيروت العربية فأَنشأَها وربطها ربطاً وثيقاً بجامعة الإسكندرية ، وكانت هذه الجامعة البيروتية قبل فجائع لبنان كعبةً يؤمها الطلاب المسلمون بخاصة من لبنان والأُردن وسوريا وفلسطين .

ورأَت الدولة أَنه رحمه الله قد أَحسن التفريع للجامعات المصرية خارج الحدود فولته وزارة التعليم العالى فكان بمثابة المنشىء لهذه الوزارة إذ كان أَوّل وزير لها وهو الذى قعد لها القواعد وحدَّد العلاقات وفرَّق الاختصاصات فى المسئولين ، ورأَس بحكم منصبه المجلس الأَعلى للجامعات ، ويشهد الجامعيون أَنه أَحسن السيرة فيهم وبذل وسعه لإصلاح ماكان بينهم من فساد ذات البين وكان الصراع على الكراسىّ فى أَواخر عشر الخمسين وأَوائل عشر الستين قد شغل كثيرا منهم عن قراءة العلم وتحريره وعن حُسن محاضرة الطلاب . وكثر اختصامهم إلى مجلس الدولة فأَنشا لهم وظيفة أستاذ بلا كرسىّ فكان الأُستاذ المساعد يرضى بلقب الأُستاذ ويتبلغ بعلاوة الترقية حتى يخلو له كرسىّ أَو تنشىء له الجامعة كرسيا .

وهو رحمه الله برىء ممن حسموا الأَمر بعد ذلك فألغوا الكراسى إلغاءً .

وكان رحمه الله عضوا مراسلاً للمجمع فلمّا ولى وزارة التعليم العالى صار بحكم منصبه الرئيسى الأَعلى للمجمع فافتتح مؤتمرات دورات ثلاث من دوراته : الدورة التاسعة والعشرين والدورة

الثلاثين ، والدورة الحادية والثلاثين ، وتكشف خطبه هذه الثلاث عن إيمانه بالمجمع ورسـالته . وعن غيرته على اللغة العربية . قال فى افتتاح الدورة التاسعة والعشرين فى السابع من يناير سنة ١٩٦٣ « ولعل مجمعكم الموقر لم يكن ضرورة حتمية فى وقت مضى كما هو الآن ، فى هذه الفترة من حياة أمتنا العربية المتطلعة إلى تعزيز لغتها وجعلها لغة حضارة من علم وصناعة وفن كما هى لسان دين وحكمة وأدب وثقافة على وجه عام . ثم وصف المجمع بأنه جامعة دولية فقال : ، وأنتم بأعضائكم العاملين العـرب وبأعضائكم المراسلين فى أرجاء الشرق والغرب وبمن معكم من الخبراء المختصين الذين تستعينونهم فيما بين أيديكم من أعمال ، تؤلفون جامعة دولية ، فى رحابها تتـلاقى الخبرات والتجارب لخدمة لغتنا العربية وإمدادها بأسباب الحياة والنماء . .

وقد سخر رحمه الله من الألسنة الحداد التى اندفعت تنحت أثلة المجمع فى أوائل أيامـه ، فقـال فى افتتاح الدورة الثلاثين « لقد أصبح واضحا أن النظرة إلى المجمع اليوم تختلف عنها بالأمس القريب فلم يسلم المجمع فى السنوات الأولى لقيامه من تشكك فى قيمته وجدواه ، وذهبت بالجمهور الظنون إلى أن مهمته هى تغيير لغة الكلام وفرض الألفاظ الممنوعة على الألسنة والأقلام ؛ ولعلكم ما زلتم تذكرون تلك الكلمات الطريفة التى اختلقها المتظرفون ونسبوها إلى المجمع تنادرا ودُعابة أو تهكما وسخرية . أما الآن فقد اتجهت الأنظار إلى المجمع فى جد وتقدير ، فهو معقد آمال البيئات العلمية والأدبية والثقافية على مؤازرتها على أن تكون العربية المتجددة لغة المعرفة على اختلاف المستويات

وبلغ من إيمانه بسلطان المجمع أن دعاه إلى مراقبة ما يعرّب وما يستحدث من الألفاظ ، قال رحمه الله : « يجب أن تكون هناك رقابة مجمعية بصيرة لا تنفك تتابع التصفية والتمحيص لكى توالىَ هذه التنمية الموصولة . بما يصونها من البلبلة والاضطراب ولم يفته رحمه الله أن يخص المعجم الكبير بفقرة فى كلمته التى افتتح بها المؤتمر الثلاثين فقال : لقد أردت بكلمتى

هذه أيها السادة أن أعرب لكم عن التقدير العميق لما تضطلعون به من هذه المهمة الجسيمة ؛ مهمة تأليف المعجم الكبير ، وعن الثقة بأنكم عاملون على تحقيقها ما وسعكم أن تعملوا فهى أمل الأمة العربية جمعاء .

أيها السادة :

لقد صحبتُ الفقيد الكريم فى لجنة مصطلحات الحاسب الإليكترونى فعرفته عن كثب عالما يتوخى دماثة اللفظ وسلامة العبارة ، ويحمل بعنف على ما قد يُقترح من لفظ وعر أو عبارة عوصاء ؛ لأن غايته إفهام التعريف بأيسر لفظ وأوجزه وأوضحه . وكان رحمه الله حريصاً على توسيع الخطى ، وإنجاز أكبر قدر من الاصطلاحات فى أقصر وقت ، كل أولئك فى تثبت ، ويقين رياضى وبراءة تامة مما يفسد مجالس العلم أحيانا من اللجاجة والمماملة والمماحكة .

فلما كانت الجلسة الأخيرة فى يونيه الماضى وقف رحمه الله فجاءةً حديث الإليكترون ونحّى مصطلحات الحاسب وأنشدنا قصيدة شوقى فى رثاء مصطفى كامل ، لم يخرم بيتا ولا أخل بوزن ولكن أنشدنا القصيدة إنشاد دارس محترف لعلوم اللغة ، وكأنما كان يعلم رحمه الله أنها جلسة الوداع . فما إن فرغ من نشيده حتى أسند رأسه إلى يمناه وكرر عبارة « إن الحياة دقائق وثوان » فكانت آخر ما قال فى المجمع . أو آخر ما سمعتُ منه فى جلسته الأخيرة .

أيها السادة :

كل العباد إلى معاد ، وكل كون إلى فساد ، ولكل جنب مصرع ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أحمد السعيد سليمان
عضو المجمع

كلمة الأسرة
فى تأبين الدكتور عبد العزيز السيد

السيد الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية . السادة الأعضاء . سادتى .

أتقدم إليكم جميعاً بخالص شكرى وتقديرى وعرفانى لحضوركم اليوم لتأبين شقيقى المرحوم الدكتور عبد العزيز السيد عضو المجمع كما أتقدم أيضاً بمزيد الشكر للسادة الذين تفضلوا بإلقاء كلمات التأبين وأرجو لكم جميعاً موفور الصحة والسعادة والتوفيق .

لقد كان شقيقى المرحوم الدكتور عبد العزيز السيد مشغوفاً باللغة العربية ومولعاً بها وبآدابها أشد الولع بالرغم من أن تخصصه أصلا هو الرياضيات والتربية ، ولاغرو فى ذلك ، فنحن من عائلة تمت إلى اللغة العربية بأسباب قوية ، وقد كانت عائلتنا فى ريف مصر تعنى أشد العناية بإرسال أبنائها إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر الشريف لطلب العلم ولما أنشئت مدرسة دار العلوم فى عهد الخديوى إسماعيل اتجهت العائلة إلى المدرسة الجديدة وأخذت ترسل أبناءها إليها تباعاً لينهلوا من ينابيعها وقد تخرج فيها والدى وأبناء عمومتى وخالى رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة .

وقد كان شقيقى رحمه الله كذلك من أشد المحبين لمجمع الخالدين مجمع اللغة العربية ، ومن أشد المتحمسين له والمؤمنين برسالته وكان يحرص أشد الحرص على حضور اجتماعاته وجلساته ، ولاسيما بعد أن قلّت أعباؤه وارتباطاته بعد أن ترك وزارة التربية والتعليم والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

لقد كان شقيقى رحمه الله فريدًا فى ذكائه ورجولته ، ولم يكن لى أخاً فحسب وإنما كان أخاً وصديقاً ومعلما

وقد تعلمت منه الكثير . وقد كان رزئى فيـــه ومصابى منه أليماً ، وكيف لاوقد فقدت فيه أعز أخ وأكرم صديق .

أيها السادة :

أعود مرة أخرى فأشكركم من كل قلبى لتكرمكم بإقامة هذا الحفل وأدعو لكم مرة أخرى بالصحة والسعادة والتوفيق ، كما أرجو المولى عز وجل أن يتغمد شقيق برحمته وأن يسكنه فسيح جناته لمـــا قدمه لعائلته وأهله وبلده

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ١٦ من صفر سنة١٤٠٦هـ (الموافق ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩٨٥ م) أقام المجمع حفل تأبين المرحوم صاحب الفضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى عضو المجمع. وفيما يلى ما ألقى من الكلمات فى الحفل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى تأبين المرحوم

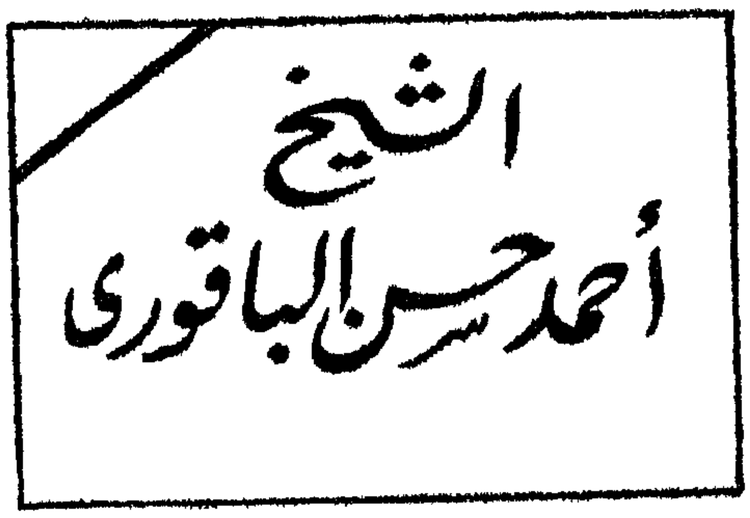

بسم الله الرحمن الرحيم

سيداتى سادتى ..

رحم الله الباقورى ، فى صفاء نفسه ورقة قلبه وسلاسة طبعه ودماثة خلقه . عرفته منذ ثلاثين عاماً أو يزيد فعرفت فيه الأخ الكريم ، والصديق الحميم . لم يتجن قط على زميل ، ولم يتخلف عن واجب نحو صاحب ، أو مشترك معه فى عمل ، ولم تغيره أحداث الدنيا ومناصبها فى معاملته للأصدقاء والزملاء وكان حبل المودة عنده أقوى الحبال وأوثقها .

وتحضرنى الآن كلمته التى استقبل بها صديقاً وزميلا له فى هذا المجمع هو المرحوم أحمد عبده الشرباصى ، وهذه وهذه الكلمة آية من آيات الوفاء الذى عرفه كل من عرف الباقورى .

وعرفته أيضاً ثائراً ومناضلا ، وكم لاقى من آمال وآلام فى نضاله. قامت ثورة ١٩١٩ م ثورتنا الأولى فى هذا القرن وسنه لم يتجاوز الثانية عشرة ولكنه فيما يبدو — أحس بها وتتبعها ، وما إن انتقل من

أسيوط إلى القاهرة حتى دخل فى معمعة الشباب وطلاب الأزهر وكان له نشاط وكان له جهاد وكان له عمل وعمل واضح فى الحركات الطلابية فى العقد الرابع من هذا القرن . وما إن تكونت جماعة الإخوان المسلمين حتى أصبح عضواً من أعضائها وعاملا من العاملين فيها ، بقى فيها إلى أن قامت ثورة ١٩٥٢ م فسارع إليها . كل ذلك لأنه كان يريد أن يؤدى رسالته نحو أمته ونحو دينه ، ونحو وطنه . واستطاع أن ينخرط فى سلك تلك الثورة الثانية وأن يؤدى رسالته نحوها ؛ داعياً خطيباً رحالة متنقلا ، وأن يضطلع بقدر من أعبائها وقدر متصل ، ولعله لاقى فى هذا مالاقى . وكان من نتائج هذا النضال أن أصابه ماأصابه بعد عشر سنوات تقريباً من عمل مستمر فى ذلك العهد الجديد وكانت الصدمة شديدة على كل من عرفه وأحبـــه . وقد زرته أول يوم بعد حدوث هذه الصدمة ولكنى لم أستطيع أن أراه بعينى ، وإنما رأيت صهره المرحوم الأستاذ عبد اللطيف دراز وتحادثنا فى الأمر ، ورجونا جميعاً أن يسترد شيخنا وصديقنا صحته وعافيته . ولكن الصدمة كانت أكبر من أن تمر بسرعة فكانت مقدمة لمعاناة عاشها الباقورى ودامت نحو عشرين عاماً أو يزيد ، وقد عرفت الباقورى خلال هذه المعاناة فى صورة أخرى هى صورة الرائد والمصلح والمجـــدد ، وأحاديثه الإذاعية وجلساته الصباحية أو المسائية وصلته الوثيقة بجمعية الشبان المسلمين ، كل ذلك كان يعكس هذا المعنى ويدور فى هذا المضمار . مضمار حاول الباقورى أن يبرهن من خلاله أنه كان يعيش فى عصره ، ومن أجل ذلك كان يحس بإحساس هذا العصر ، ويواجهه مؤمناً بأن تعاليم الإسلام لا تتعارض مع نهوض أو تقدم ، مادام هذا النهوض والتقدم يحترم القيم الإنسانية والقيم الإسلامية وينزل عندها . وكم كان يرحب بالجديد مادام هـــذا الجديد لايتعارض مع الدين فى شىء .

كلمة الدكتور محمد الطيب النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله سبحانه وتعالى . ونصلى ونسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد بن عبد الله . . سبحانك اللهم لا معقب لحكمك ولا راد لقضائك .

ففى كل حين دمعة إثر ذاهب
وفى كل يوم لوعة بعد صاحب
أودع صحبى واحداً بعد واحد
فأفقد قلبى جانباً بعد جانب

حضرات السادة والسيدات :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

إن الأيام تمر وتتتابع وتدور رحى الزمن بالناس ، فيغير الله الأحوال بين يأس ورجاء ، وعبوس وصفاء ، وشروق وغروب ، وحياة وموت ، وإقبال وإدبار ، والله يقلب الليل والنهار . نعم يقلب الله الليل والنهار .. فتلكم سنة الله فى خلقه وذلكم تقدير العزيز الحكيم ، وصدق الله العظيم .

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة . فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

« عش ماشئت فإنك ميت ، واحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ماشئت فإنك مجزى به » .

ولله قول الشاعر الحكيم :

حكم المنية فى البرية جـــار
ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسان فيها مخبراً
فإذا به خبر من الأخبار
طُبعت على كدر فكيف تريدها
صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب فى الماء جذوة نار

أجل ، إن الموت حق لاريب فيه ؛ ومامنه من بُدٍّ رضى الناس أم سخطوا ؛

أعلنوا الحرب عليه أم سالموا . ولكن العاقل المؤمن هو الذى لا يجزع حينما يتخطف الموت أخلاءه ، والعاقل المؤمن هو من يحمل فى يده سلاح الصبر ؛ كى يغالب به الأحداث ويقتحم الأخطار ويمضى فى طريقه الشاقة إلى غايته الحاقة فى رضا واطمئنان وصبر وإيمان . والناس فى هذه الحياة رجلان : رجل يفهم من الحياة عيشاً رغدًا ، ومتاعاً شهياً وسنين متطاولة فحسب ، فهو يعبر الحياة سابحاً فى ظلام الأنانية ، محاطاً بغلاف الأثرة الكثيف ، دائرًا حول نفسه ، لا يأوى على شىء إلا على منافعه ومآربه ومثل هذا الصنف من الناس لا خير فى وجوده ، فهو يعيش على هامش الحياة ، كما تعيش الهوام والحشرات ، ويأكل ويتمتع ويرتع كما ترتع البهائم العجماوات ، حتى إذا جاء أجله فارق الحياة فلم تحفل به الحياة ، ولم تأسس لفراقه ، وكتب التاريخ صفحته لوثة فى جبين المجتمع ودمامة فى وجه الإنسانية . هذا صنف من الناس .

ورجل آخر يفهم من الحياة أن يكون حباً فى أذهان الناس بأعماله وكريم أفعاله متوغلا فى أعماق الزمن بعبير ذكره وطيب أثره ، فهذا الصنف من الناس لايموت أبدً بل يظل فى الحياة خالدًا بأثره ، باقياً بمجده وخطره ولله قول شوقى رحمه الله :

من سره ألا يموت فبالعلا
خلد الرجال وبالفعال النايه

ما مات من حاز الثرى آثاره
واستولت الدنيا على آدابه

أيها السادة والسيدات :

لقد كان فقيدنا الكريم من هذا الصنف العظيم الذى يفهم من الحياة أن يكون حياً فى أذهان الناس بجليل أعماله وكريم أفعاله .

ولقد قضى حياته — بحمد الله — مجاهداً مكافحاً منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره ، ولقد عرفته طالباً بالمرحلة العالية ، فى الأزهر الشريف وكنت حينئذ طالباً بالمعاهد الأزهرية الثانوية ، وكان يرأس محركة الإصلاح التى قام بها الأزهر ، كان يرأس الثورة الإصلاحية التى قام بها طلاب الازهر ، وكنا نستمع إلى بياناته العظيمة الجايلة ، التى كانت تتألق فى نفوسنا كما تتألق النجوم الهادية

وكنا نسير وراءه ، ونمضى إلى غايتنا حتى كتب الله لنا الفوز والنجاح بقيادته وزعامته . ومازالت ترن فى أذنى خطابته التى ألقاها فى استقبال الإمام الأكبر المغفـور له الشيخ محمد مصطفى المراغى مازالت ألفاظها ترن فى أذنى ، رهى التى طوعت لكبير من الأدباء أن يقول له : « إن مستقبلا عظيماً ينتظر هذا الشاب العظيم » ، ولقد زاملته حينما كان وكيلا لمعهد القاهرة الدينى ، وكنت حينئذ مدرساً فيه ، وأشهد ـ والله على ما أقول شهيد ـ أننا كنا نجلس معه فلا نسمع أى لغو من الكلام ، وإنما كان يدير الحديث دائما فى العلم والأدب ، وكان يتنقل بنا فى روضات العلم والأدب من فنن إلى فنن ، ومن ثمرة إلى ثمرات . وهكذا لا يصدر عنه الوارد عليه إلا وقد امتلأت نفسه بالإعجاب والإعزاز والإكبار .

ولقد رأيته بعد ذلك حينما وقعت له المحنة الأليمة ، فامتدت إليه يد ظالمة ، وحبسته فى بيته زمناً طويلا ، وكان الناس حينئذ يتخوفون أن يذهبوا إلى بيته زائرين وللحقيقة والتاريخ ـ أحب أن أقول إننى ؛ كنت واحدًا من أولئك الذين كانوا يذهبون إليه ، ووالله ، لقد كانت هذه المحنة خيرًا كبيرًا له ؛ حيث قضاها عاكفاً فى محراب العلم والادب ، وتزود منها بالعلم النافع الغزير . وهكذا ظللت ـ بحمد الله ـ أرافقه مرافقة الأخ الصديق حتى انطفأت تلك الشعلة الوهاجة ولقيت الروح الطاهرة ربها راضية مرضية لتدخل فى عبادة ، ولتدخل جنته .

أيها السادة والسيدات .

قد يكون من الخير أن أقرأ عليكم بعضاً مما تعيه الذاكرة من تاريخ فقيدنا العظيم :

لقد ولد فى باقور سنة ألف وتسعمئة وسبع ، وكان والده من المتصوفة الذين يعرفون الله حق المعرفة ، فنشأ فى بيت يعرف الله ويخشاه وحفظ القرآن الكريم فى كتّاب القرية ، ثم التحق بمعهد أسيوط الدينى ونال منه الشهادة الثانوية الازهرية وبعد ذلك التحق بالقسم العالى ونال شهادة العالمية النظامية سنة ألف و سبعمائة

واثنين وثلاثين ، ثم التحق بقسم التخصص في البلاغة والأدب ، فنال شهادته سنة ألف وتسعمئة وست وثلاثين ، وبدأ حياته مدرساً بالأزهر ، ثم تدرج في وظائف التدريس ، فأصبح مدرساً في كلية اللغة العربية ثم وكيلا لمعهد القاهرة الديني ، ثم شيخاً لمعهد المنيا ، وهكذا ظل يتنقل بين المعاهد الأزهرية شيخاً لها . حتى جاءت الثورة فعين وزيراً للأوقاف . ثم عين بعد ذلك رئيساً لجامعة الأزهر ، وفي خلال هذه المدة اختير عضواً في مجمع البحوث الإسلامية ، كما اختير عضواً في مجمع اللغة العربية ثم رئيساً لجمعيات الشبان المسلمين ، ورئيساً لمعهد الدراسات الإسلامية وعضوا في مجلس الشورى .

تلكم خلاصة يسيرة ومضة خاطفة من تاريخ حياته وكان له خلال ذلك مؤلفا علمية قيمة أحب أن أقرأ بعضها عليكم كما سجلها مجمع الخالدين . وهذه الوثيقة التي سجلها المجمع له إن دلت على شيء فإنما ، تدل الدلالة كلها على مدى ما أفاد به العلم ، وما نفع الله به من علم غزير يرجى خيره إن شاء الله .

أهم مؤلفاته :

١ ـ أثر القرآن الكريم في اللغة العربية .

وفي هذا الكتاب تحدث عن إعجاز القرآن وجلاله وجماله وكيف أنه الأساس لنهضة اللغة العربية .

٢ ـ عروبة ودين .

٣ ـ خواطر وأحاديث .

٤ ـ في عالم الصيد .

٥ ـ مع القرآن الكويم .

٦ ـ مع الشريعة .

٧ ـ مع القرآن حول جزء تبارك .

٨ ـ تحت راية القرآن .

٩ ـ صفوة السيرة المحمدية .

١٠ ـ من دلائل النبوة .

١١ ـ قطوف من أدب النبوة .

والأستاذ الباقوري عليه رحمه الله حاصل على وشاح النيل من الطبقة الأولى سنة ألف وتسعمائة وخمس وخمسين .

ـ وكسوة التشريفة من الملك عبد العزيز آل سعود عام ألف وتسعمئة وخمسة وأربعين .

ـ وكسوة التشريفة والسيف الذهبى من الملك عبد العزيز آل سعود عام ألف وتسعمئة وثلاثة وخمسين .

ـ ووسام النهضة من الدرجة الأُولى من الملك حسين ملك المملكة الأُردنية الهاشمية عام ألف وتسعمئة وثلاثة وخمسين .

ـ ووسام من خليفة تطوان فى العام نفسه (١٩٥٣) .

ـ ووسام ووشاح الخلافة الشريفة من الملك محمد الخامس ملك المغرب فى العام نفسه .

ـ ووسام أُمية من الجمهورية السورية عام ألف وتسعمئة وسبعة وخمسين .

هذه ومضة خاطفة لآثاره ومآثره .

أيها السادة والسيدات :

إن المقياس الحقيقى الذى تقاس به الأعمال ، وتوزن فى ضوئه الآجال والأعمار ليس هو الزمن المديد وإنما هو العمل الصالح الحميد ، الذى يفيد الإنسانية جمعاء ويبقى به ذكر الإنسان ؛

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له » .

وإن العظمة فى هذه الحياة ليست بالأمر الهين الميسور لكل إنسان . إنما تتطلب العظمة والخلود فى هذه الحياة أن يتزود الإنسان لها بالعقل الراشد والتفكير السديد والعلم والخلق والعمل الدائم الذى لاينقطع أثره على امتداد الحياة ولقد كان فقيدنا ـ رحمه الله عليه ـ تتمثل فيه هذه المعانى فوصل ـ بحمد الله ـ والباقورى لم يبن خلوده ولامجده من الأوهام ، ولم يبن خلوده ولا مجده من أحجار ملقاة فى الرغام إنما بنى مجده من النجوم ، ومضى إلى غايته بالعمل الدائب صعدًا فوق أشلاء المتاعب والمصاعب

ألا رحم الله أخانا وزميلنا وشيخنا الأُستاذ الباقورى وألهمنا الصبر على فقده ، وجزاه عن العلم والخلق والدين خيرما يُجزى به رجل أخلص لله وجاهد فى سبيل الله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فى رثاء الفقيد

قصيدة للدكتور ابراهيم ادهم الدمرداش

عضو المجمع

دَعَـاهُ اللهُ للحُسْنَى وَيَوْمَ العِيـدِ لبَّـاهُ

كَأَنَّ الرُّوح قُرْبَان إِلَى الرَّحمٰنِ أَهْـدَاه

«حَدِيثُ الرُّوح» منياه ومَا أَحَـد سَيَنْسَاه

وَرِضْـوانٌ يُحَيِّيـه بِيُمْنَـاهُ ويُسْـرَاه

لِأَقْـوَالٍ وَأَفْعَـالٍ وَإِيمَـانٍ بمَـوْلَاه

فبُشْـرَاه بأُوْلَاه وبُشْـرَاه بأُخْـرَاه

قُلُوب النَّـاس مأْوَاه وبِالْفَرْدَوْسِ مَثْـوَاه

وَأَهْل الذِّكْر قَدْ جَاءُوا إِلَى إِحْيَـاءِ ذِكْرَاه

فَإِنَّ الدِّين وَالفُصْحَى لَفَتْـوَاه وَتَقْـوَاه

كَلَام العُرْب من فِيهِ كَمِسْـكٍ مِن ثَنَايَاه

كَأَنَّ العُرْب قدْ أَبْقَوْا رَوَائِعَهُم لِيُمْنَـاه

شَبَابٌ مُسْلِمٌ فَازُوا بِقِسْـطٍ مِن عَطَـايَاه

كتَابِيُّـونَ فى حُزْنٍ لَعَطْفٍ فى سَـجَايَاه

إِمَـامٌ لَيْسَ تُغْرِيهِ كُنُوزُ الْمَـال وَالجَـاه

صرُوف الدَّهْرِ أَعْيَاهَا سَـبِيل اللهِ مَرْمَـاه

إِذَا مَاحَلَّ فى جَمْـع فَأَهْلُ الشِّرْك تَخْشَاه

وإِنْ غُمَّت عَلَى قَوْمٍ فَإِنَّ الحَـقَّ فَتْـوَاه

وَدَرْس الدِّين أَلْقَاهُ عَلَى عِلْمٍ بفَحْوَاه
وشَرْح النَّحْو أَدَّاهُ بِمَبْنَاهُ ومَعْنَاه
إِذَا ما ارْتَاد يَنْبُوعًا لِعِلْمٍ صَارَ مَجْرَاه
تَخَلَّتْ عَنْهُ دُنْيَاه ودَارُ الخُلْدِ مَأْوَاه
سَلَامُ اللهِ أُهْدِيه لِعَبْد جَاءَ مَوْلَاه
وذِكْرُ اللهِ فى فِيهِ خِتَامٌ كَانَ يَهْوَاه
وكُل الخَيْرِ أَبْقَاه لِيَوْمٍ فِيهِ يَلْقَاه
سَأَلْتُ اللهَ نُعْمَاه وحُسْنَاهُ وَرُحْمَاه
لِشَيْخٍ عَالِمٍ عَلَمٌ يَقِين الحَقّ وافَاه

إبراهيم الدمرداش
عضو المجمع

* * *

تهيبت أن أرثى
قصـــيدة للدكتور سعد ظلام

نُروِّع بالآلام .. لَكن نُغَـالِب ونُسحَر بالأَحْـلَام .. والعُمر لَاحِبُ
نُغَنِّى .. وكأْسُ الموْتِ فَوْقَ شفاهنَا ونسمرُ .. والعُمر المقَدَّرُ نَاضِبُ
وتَطْلُبنَا الآجَـالُ فى كُل لَحْظَة ومَا أَسْرعَ المطْلُوبَ .. وَالموتُ طَالِبُ
وِدَاعًا .. «أَبَا يُمنَى» .. لَقَد كُنتَ باقة من الحُبِّ .. والحبُّ لِلودِّ جَالِبُ
وماضَنَّ هَـذَا الوَرْدُ يَوْمًا بِعِطْرِه تَهَـادَى شَذَاه لصُّـه وَالحَبَايبُ
وكنتَ طِرَازًا فى الرِّجَـالِ مُحَنَّكًا يَعِزُّ بِهِ خصمٌ ويَسْنَى أَقَارِبُ
وكنتَ وَزِيرًا .. جَاهُه فى شهَابِه ولِلنَّـاسِ فى هَـذَا الشهَابِ مَطَالِب
فَلَا غَابَ مَأْمُولٌ .. وَلَا خَاب آمِلٌ وَلَا جَاهُكَ المعطَاءُ فى الخَلْقِ شَاحِبُ
وَلَا خَاب فِيك العزمُ ، أَو ضنَّ وردُهُ وَلَا ثَغرُكَ الأَسنى طوتْه السَّحائِبُ
وكَمْ لَك فى «الشُّبَّانِ» روحٌ مُجَاهِد عَلَى مِئْذَنَاتِ النُّور .. روحٌ مُجَاوِبُ
زرعتَ بِهَـا الروَّادَ فى كُل محفَلٍ وكنتَ إِمَامًا .. ثَقَّفَتْهُ التَّجَـارِبُ
عَلَى جَنَبَـاتِ الأَرضِ كعبةُ مُحرِمٍ ومصحفُ قَارٍ .. فى حِرَاءَ وَرَاهِبُ
وعُمرٌ من الأَقْدَاسِ .. أَنتَ قَطَعْتَهُ بمحْرَابِ هَذَا الدِّين فينَانُ .. وَاهِبُ
وكَمْ لَك مِن رَأْيٍ .. وفَتْوَى .. ودَعْوَةٍ وفِكْرٍ خَصِيبٍ .. بالعراقَةِ صَـائِبُ
خُطَاك عَلَى الكَونِ الرَّحِيبِ مهَـابَةٌ وسِـفْرٌ وضىء السفرِ رَيَّان كَاتِبُ
جِهَـادٌ .. فأَمَّا الجِسمُ فِيهِ فَوَاصِبٌ نَحِيلٌ .. بَرَاهُ السَّقْمُ والرُّوحُ لَاهِبُ
وفى الأَزْهَرِ المعْمُور جيشٌ مِن الفِدَى تَدَفَّق .. والآيَاتُ فِيهِ عَصَـائِبُ

وأَنتَ فَتَاهُ الحُرُّ .. قُطْبُ صَبَاحِه ... تَنُور .. وكَم ثَارَ الأُبَاةُ الذَّوَائِبُ

سكبْتَ شَبَابًا رفَّ كالفَجرِ فِيهِمُ ... فهبَّ شَبَابٌ لِلفِدَا .. وأَشَايِبُ

تَجَاوبْتَ فى الأَحْدَاثِ .. تَحدُو نهارَهَا ... فَلِلَّهِ ذَاكَ الصَّارِحُ المُتَجَاوِبُ

أَعِزْنى زَمَانًا كُنتَ فِيهِ كِفَاحَه ... بشورتِه العُظْمَى تَمُورُ المَوَاكِبُ

فَلِلدِّينِ والأَوْطَانِ كَانَ نِضَالُه ... ولِلهِ والإِصْلَاحِ كانَ المُحَارِبُ

وثَبْتَ شُجَاعًا .. لَا تَهَابُ مَعَاطِبًا ... وأَيْنَ من العَزْمِ القَوىِّ المَعَاطِبُ

كأَنَّكَ غَازٍ ـ حَيْثُ كَانَ ـ مُظَفَّرٌ ... طَلَائِعه فى العَالمينَ المَوَاهِبُ

تَجيشُ قُلُوبٌ .. أَو تُرَاعُ مَنَابِرٌ ... ويَجهشُ مِحْرَابٌ وتَصْحُو كَتَائِبُ

نَهَيَّبْتُ أَنْ أَرْثِى .. فَإِنَّكَ مَاثِلٌ ... بِأَخْلَادِنَا .. تَشْدُو بِهَا .. وتُجَاوِبُ

وَلَا فَرقَ .. إِلَّا أَنَّهَا أُطُر النَّوَى ... تحول رُؤَى الأَشباح لَو شَاءَ طَالِبُ

سِوَى أَنَّ ما نَحْيَاهُ بَعْدَك نَمائِمٌ ... وكل الَّذِى عِشْنَاه بَعْدَكَ شَاحِبُ

فكُلُّ أَمَاسِيكَ الحَوَالِى أَقَارِبٌ ... وكلّ لَيَالِيك الخَوَالِى حَبَائِبُ

وكُلُّ مَرَائِيك الغَوَالِى مَوَاثِلٌ ... وكل أَمَانِيك الحِسَانِ سَوَاكِبُ

كأَنَّكَ باسمِ اللهِ فى كل محْفل ... تشِعّ كَمَا شَعَّتْ عَلَيْنَا الكَوَاكِبُ

أَلَا كلّ حَفْلٍ دون بَدْرِكَ أَبتر ... وكلّ مَكَانٍ دون نُورِكَ غَارِبُ

كأَنَّكَ فِينَا لا تَزَالُ كعَهدِنَا ... تَقُول فنُصغِى .. أَو تَرَى فَنُجَاوِبُ

وقد كُنتَ تَلْقَانى بقَلْبٍ مُرَحِّبٍ ... كأَنَّكَ تَلقَى بِى الَّذِى هُوَ غَائِبُ

وكنتُ إِذَا ما غبتُ أَلمحُ نَاظِرًا ... تُسجى بأَهْدَاب كأَنَّكَ عَاتِبُ

ومَا لِى .. أَتَيتُ اليَوْم أَحتَضِن الأَسَى ... يُحَالِفنى يَأْسٌ غَبِىٌّ مُغَاضِبُ

تَغَيَّر طَعْمُ العُمْرِ حَتَّى رَفَضْتُه ... وأَرْقَنِى سهمٌ من الحزنِ نَاشِبُ

تشيبُ دُمُوعِى فى الوَدَاعِ وهَوْلُه ... وتُرهق أَعْصَابِى .. وتَعوى المَتَاعِبُ

وتَهْتَزُّ فى عَيْنى الرُّؤَى وَانهزامُهَا ... وتَحْتَجُّ أَيَامِى .. وتهوى الكَوَاكِبُ

عزاء شُيُوخ الضَّاد قدْ خَرَّ بَيْنَنَا ... كِسَائِىُّ هَذَا العَصْر..وَالعَصْر نَاضِبُ

عَلِيمٌ بفِقْهِ الضَّاد والرَّأى .. حجَّةٌ ... وأَروغ شاد بالفَصَاحة .. صَائِبُ

يقَعَّدُ للفُصْحَى بِمَا قَدْ يَقُولُه ... وتُؤْخَذُ عَنْهُ فى البَيَانِ المَطَالِبُ

وَشَائِجُ من «عَدْنَان» كنتَ عَلِيَّهَا ... و«أَكثمهَا» «الأَذْكَى»..عَدَتْكَ المَعَايبُ

نهلتَ من التَّنْزِيلِ سرَّ بَيَانِهِ ... فَلَو تَقْرَأُ الآيَاتِ كَانَتْ تُجَاوبُ

فَلِلآى فيما قَدْ قَرَأْتَ نَضَارَةٌ ... عَلَى نَضوةٍ فِيهَا .. ونُورٌ مُغَالِبُ

وللضَّادِ سِحْرٌ رائعٌ وحَلَاوَة ... وصَوْتٌ رَخِيم الجَرس فَنَّانُ ذَائِبُ

تَمُرُّ حُرُوف الضَّادِ بينَ شِفَاهكُم ... كَمَا رَتَّلَ القُرْآنَ «كَعْبٌ» و«حَاطِبُ»

وأَنتَ خَطِيبٌ أَبلجُ الصَّوْتِ مصقع ... كَلَامك فى الأَلبَاب حُلْوٌ وَذَاهِبُ

لِأَنَّكَ صَنَّاجُ الحُرُوفِ وصَادِق ... وَأَنَّكَ صَنَّاع البَيَان .. وَثَاقِبُ

رَأَيتُ بِكَ الإِنْسَانَ عَانقْتَ رُوحَه ... وَإِنَّكَ للنُّبلِ المضوَّأ صَاحِبُ

فَقَبَّلتُ فِيكَ النُّبلَ حِينَ رحمتَه ... وحِينَ أَشعَّتْ من سناهُ الكَوَاكِبُ

تُقَاتِل فِيهِ ضَعْفَهُ . . وتُعِزُّه ... وتُحيى بهِ الرُّوح الَّذِى هُوَ غَارِبُ

وأَنتَ كَكُلِّ النَّاسِ إنسانُ عَصرِنَا ... وفى الخَلْقِ ضعْفٌ فى الأَنَاسِين نَاشِبُ

رَمَاك ضِعَافُ النَّاسِ لم تَكُ مثلَهُم ... تَرَفَّعت شمسًا قدرَمَاهَا الأَكَالِبُ

نظرتَ إِلَى هَذَا الصَّغَار فَعِفْتَه ... وقلتَ : صِغَارٌ مُفْتَرُونَ أَكَاذِبُ

وما مَقْصد البَاغِينَ إِلَّا إِسَاءَةٌ ... وما حُجَّةُ البَاغِينَ إِلَّا المَثَالِبُ

أَلَا أَيُّهَا الرَّكب المُوَدِّع .. والرُّؤى ... ثكَالى .. وأَحْلَام الرِّجَال عَوَازِبُ

صبَغْتَ أَدِيمَ الأَرض من لَوْن حزْنِنَا ... فَكُل مَكَان بالمَنَاحَةِ خَاضِبُ

تَمَهَّلْ قَلِيلًا أَيُّهَا الركبَ .. إِنَّهُ أَمَانِىُّ شَعْب .. لا يَزَالُ يُغَالِبُ
ومهبط أَحْلَام ودِينٍ مُجَاهِدٍ تُرَاوِغه فى ذِى الحَيَاةِ الثَّعَالِبُ
وبندٌ عَظِيم الخَفق كانَ مُضَوَّأ وحضنًا لآمَالٍ طَوتْهَا المَصَاعِبُ

سَلَامًا عَلَى بَدْرٍ فَقَدْنَا بِفَقْدِه لِوَاء .. وتَارِيخًا .. وجَيْشًا يُحَارِبُ
بَكَى فى الوداع الحُبُّ والحَقُّ وَالنَّدَى وعِلْمٌ .. وفقْهٌ .. والسَّنَا والمَنَاقبُ
فَفى كُلِّ صَقعٍ يا صِحَابُ نَوَائِبُ وفى كُلِّ أُفق يا رِفَاقُ نَوَاعِبُ
تَأَيَّم فِكْرٌ .. بَعْدَهُ وبَرَاعَةٌ ورُوِّعت الآرَاء .. واستَاءَ وَاجِبُ
وعُطِّل مِحْرَابٌ .. وبهوٌ .. ومنبرٌ وأظْلم صُبحٌ بالمنيَّةِ كَاذِبُ

سَنبْكِيكَ مَا عِشْنَا ونَبْكِى حُظُوظَنَا إِذَا عَزَّنَا غيمٌ وَلَاحتْ عَنَاكِبُ
وزُيِّنَتِ الأَنْبَاءُ واعتلَّ صِدْقُهَا وشَابَ نَقِىُّ الدِّينِ بالزَّيْفِ شَائِبُ
وَدَاعًا .. أَبَا يُمنَى ..رَضِينَا بحُكْمِه وفى قَلْبنَا دَاجٍ من الحزنِ لَاهِب

رَضِينَا وفى الأَحنَاء مِنَّا عَقَارِبُ وما تَرَكَت سَودُ اللَّيَالِى الغَوَاضِبُ
رَضِينَا .. لأَنَّ الموْتَ حَتْمٌ مُقَدَّرٌ ونَحْنُ بِهذَا الدَّهْر عَبْدٌ مكاتَبُ
نروِّع بالآلام .. لكن نغَالِبُ ونُسحَر بالأَحْلَام والعُمر لَاحِبُ
نُغنى وكأس الموْت فَوْقَ شِفَاهنَا ونسمُر والعُمْر المُقَدَّرُ نَاضِبُ
ونَهْرَبُ من كَأْسِ المنُون وشُرْبِهَا وكُلّ الَّذِى فى الكَوْن للكَأس شَارِبُ
وتَطْلُبُنَا الاجَال فى كُلِّ لَحْظَةٍ وما أَسْرَع المطْلُوبَ .. والموْتُ طَالِبُ

* * *

سعد عبد المقصود ظلام
عميد كلية اللغة العربية
بجامعة الأزهر – القاهرة

كلمة الأسرة

للسيدة يمنى الباقورى

نحمدك اللهم حمد المؤمنين الآمنين حمدا يستدفع عن أهل الإيمان أهاويل البلواء ويستبقى أفاويق النعماء .

ونصلى ونسلم على سيد ولد آدم سيدنا محمد بن عبد الله إمام المتقين وخاتم الأنبياء والمرسلين .

جال بخاطرى وأنا فى الطريق إلى مجلسكم الموقر أول ماكتب أحمد حسن الباقورى من شعر راثيا فيه المرحوم الأستاذ أمين الرافعى حيث قال :

عزيز على من كان بالأمس ما دحًا

أمينا معافى أن يرى اليوم راثيا

ولكن متى كان العزيز على الورى

عزيزا على الدهر الذى ظل قاسيا

وجدت فى هذين البيتين التعبير الواضح عن بعض ما يعتلج به صدرى من مشاعر كثيرة — فلا شك فى أنه عزيز على نفس أن أقف مثل هذا الموقف ، وفى ذات المكان الذى طالما أحبه أبى أحمد حسن الباقورى

لقد كان الباقورى عالم لغة من الطراز الأول ، فهم العربية حق الفهم ووقف على أسرارها ، وحفظ كتابها الأول منذ نعومة أظفاره وظل يحفظه حتى فارق الحياة ، وكان يعتبر حفظه له الفضل الأكبر من الله عليه .

وكان عالما بتفسير القرآن الكريم ودارسا جيدا للفقه الإسلامى وكان أيضاً راوية حديث يحفظ أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ويحفظ كثيرا من أسانيدها وله علم كبير بتاريخ الرجال فيها وكان يحفظ من مأثور أقوال العرب شعْرا ونثرْا — شيئا كثيراً يجيد استدعاءه من الذاكرة فى مناسبته كأنه يقرأ من كتاب مفتوح .

وكان داعية إلى ربه منذ كان يافعا داعية لا يشق له غبار وكان الباقورى

عالم تاريخ وكان أكثر علما بتاريخ الإسلام فى القديم والحديث .

كان الباقورى يحمل فى عقله وقلبه مواهب متعددة ، تظنه حين يعرض لواحدة منها أنه لا يملك سواها لشدة تفوقه فيها . لكنك لا تابث أن تعرف أنه متفوق فى مواهب أخرى كثيرة .

ولعل حضراتكم تعرفون الكثير عن أحمد حسن الباقورى أكثر ما أعرفه ولكنى اليوم عندما أتحدث عنه راثية إنما أنا فى الواقع أرثى كيانى الداخلى والخارجى . فقد كان الباقورى الأستاذ والقدوة والصديق والأخ والأهل والحبيب ، وقبل هذا وبعده كان الأبَ الحنون العطوف . .

كان الباقورى يتأسى فى حياته ومعاملته بأخلاق سيد البشر سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فقد كان محبّاله يتخيله فى كل تصرفاته ويقتدى به فى كل أعماله فلم يعرف فى حياته غطرسة ولا كبرياء بل كان البيت يكسوه الهدوء ويظلله الوئام ، كل واحد فيه يحرص على مرضاة الآخرين وهو على غير تعمد أو اصطناع قدوة الجميع فى هدوئه وأدبه وأخلاقه . لم يبد الباقورى تبرماً ولاضيقاً عندما اختار الله أولاده الذكور فى طفولتهم ولاشك أنه كإنسان كان يتمنى ذلك ولا بأس عليه فى هذا التمنى وقد تمناه رسول الله من قبل كان البيت معموراً .

بالعطف والحنان يجلس هو معهم صديقا ومعلما وناصحا ، وكثير ما كان يطلب من واحدة منا أن تقرأ له ، لا لأنه سئم القراءة ومل الاطلاع ولكنه ليدربنا على قراءة الكتب الإسلامية ، فهو درس منه لنا على غير شعور منا ـ فلم تكن مجرد قراءة وسماع ، بل كان يشرح ما يقرأ ويوجه أنظار القارئة والمستمعة إلى مايحوى الحديث من عمق العظة ، وجمال التعبير ، وصحة المنطق ، وقواعد اللغة .

وأذكر أنه فى سنواته الخمس الشهيرة والتى يحلو للبعض أن يسميها بسنوات المحنة ، وإن كنت أعتقد أنها سنوات منحة . . . منحة الله للباقورى ، فقد بعد عن حلبة السياسة فى فترة اتخذت فيها قرارات كان يصعب على الباقورى الموافقة عليها . أذكر أننى كنت آنذاك فى حوالى العاشرة وأراد أبى أن يوجه نظرى إلى حفظ القرآن ، فكان يطلب منى أن أُسْمِعَهُ بعض آياته خوفا من أن يكون نسيها ويكررها على مسمعى

أكثر من مرة حتى عرفت فيما بعد – وبعد أن كدت أحفظ أكثر كتاب الله – غرض أبى . فهو لم يلجأ فى يوم من الأيام إلى الأمر ، فكان دائماً عطوفاً بغيرلين قويا بغير تجبر .

ولهذا كان كل فرد من أفراد الأسرة يشعر نحوه أنه صديق وأخ ووالد ولا تتوافر دائما فى الأخ والصديق هذه الثقة ، وكل هذا الإخلاص . وبهذه الطريقة استطاع أن يُذهب من نفوسنا الرهبة ولكنها لم تذهب الهيبة والاحترام

ويحضرنى الآن قول أبى الغالى قبل انتقاله إلى بارئه محدثاً أمى :

لا تجزعى لا تجزعى وإذا سألت فاسألى الله ، ولن يتخلى الله عنكن لأننى لم أتخل عنه . وكانت هذه هى وصيته الأخيرة وكأنه أراد أن نطمئن جميعا إلى الدنيا لأن الله معنا – وإنى إذ أشكركم سلفا على حسن استماعكم وسعة صدوركم لأرجو أن تغفروا لى تطاولى فى الحديث إليكم ، ولكن عذرى أننى عندما أتحدث إلى حضراتكم فإنما أتحدث إلى أب كريم أو عم عزيز أو أخ غال .

والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته

كلمة ختامية للدكتور ابراهيم مدكور

رئيس المجمع

أيها السيدات والسادة :

إننا اليوم ونحن نودع الباقورى فإنما نودع علماً من أعلام اللغة والبيان ، ونودع رجلا من رجال الدين دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، نسأل الله العلى القدير أن يسبغ عليه ظلال رحمته ، وأن يوسع له فى جنته بقدر ما أسدى لوطنه ولأمته .

وفى الختام لايسعنى سوى أن أتقدم إليكم جميعاً بالشكر العميق على تفضلكم بالحضور واستماعكم إلى ما ألقى فى هذا الحفل من أحاديث وكلمات .

وسلام عليكم من الله ورحمة وبركات .

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

سيداتى سادتى

ودعنا شيخاً جليلا وعالماً فذا فى علوم التاريخ واللغة ، وهب نفسه للعلم منذ الصغر ووقف حياته على بحوثه وأفكاره التى لم تتوقف على إنتاجه الشخصى فحسب ، بل كان له دورٌ فعال فى مجلس المجمع ومؤتمره ولجانه ولقد فقد المجمع بفقد الزميل الأستاذ محمد عبد الله عنان فارساً لا يشق له غبار فى شتى فنون العلم والمعرفة .

ويتفضل الآن الزميل الدكتور حسين مؤنس بالقاء كلمة المجمع فى تأبينه .

كلمة الدكتور حسين مؤنس

محمد عبد الله عنان

فى تأبين المرحوم الأستاذ

سيدى رئيس المجمع .

سيداتى وسادتى :

عندما أمثل أمامكم لأرثى صديقى وزميل الدرس والفكر محمد عبد الله عنانى أشعر أننى أرثى نفسى فى نفس الوقت ، لأن الصلة بينى وبينه كانت صلة زمالة واشتراك فى العمل ومشاركة فى الاهتمامات والهموم . وفى العادة عندما يموت واحد من أصحابنا الأعزة نشعر أن جزءًا منا قد مات ، لأن المرء بأترابه وبأصحابه وأبناء جيله الذين عاش وعمل وسعد معهم ومن خلالهم .

فى حالة مثل هذه لا أظن أنكم منتظرون منى المعلومات التقليدية عن المولد والدراسة ومراحل الحياة والعمل فهذه وفاها حقها الأستاذ على النجدى ناصف عندما استقبله باسم المجمع عند دخوله إياه ، ولكنكم تنتظرون منى أن أحدثكم عن حياتى مع محمد عبد الله عنان أديباً وصحفياً ومؤرخاً وكيف كان يعمل فى تلك الميادين الثلاثة التى أنفق فيها عمره وجهده ، وتلك أيضاً هى الميادين التى أنفق فيها جهدى وعمرى . وصلتى بالأستاذ عنان ترجع إلى الثلاثينات من هذا القرن عن طريق مجلة السياسة الأسبوعية أولا ولجنة التأليف والترجمة والنشر ثانياً ، وفى كلا الميدانين كان هو الأستاذ المستقر فى مكانه وعمله ، وكنت أنا وأمثالى فى عداد الحائمين حول الحمى باحثين عن ثغرة ننفذ منها إلى العالم الذى كنا نحلم بالدخول فيه . ففى

السياسة الأسبوعية كنا ننتظره حتى يقبل وبيده مقاله الأسبوعي فى السياسة الدولية وكان ثانى فرسانها بعد محمود عزمى فى تلك الأيام . وكان محمد عبد الله عنان أيامها شاباً فى بداية الثلاثينيات من عمره : صغير الحجم خفيف الروح سريع الحركة ، يقبل فيجدنا فى انتظاره للفرجة عليه لا للحديث معه . وأين كنا وأين كان ! كان هو من الواصلين أصحاب الإمضاءات فى عالم الصحافة ، وقد حاول واحد منا يوماً أن يسأله فى شىء مما كتب عن رجل من رجال السياسة الأوروبية يسمى شتريزمان ولا أنسى ملامح الاستغراب التى بدت على وجه عنان عندما سمع زميلنا يتكلم فى السياسة الخارجية . وهى عند عنان مجال الأساتذة الكبار دون غيرهم ، فقد كانت تلك سنوات ما قبل الحرب العالمية ، وموسوليني قد استقر وغزا الحبشة وأخذ يتطلع إلى اليمن ؛ أما أرتيريا فكانت فى يده ، وكانت تلك كذلك أيام هتلر الصاعد وخطاباته النارية تثير الرعب فى القلوب وعنان كان يعرف الألمانية . فهو يكتب عن علم ، وكان يقرأ التايمز والطان والفيجارو ، ولهذا فهو بحر ، وكيف يجرؤ هذا الشاب على أن يخوض فى بحر عنان؟ فكان رده على الشاب جافاً مقتضباً ، ثم استدعاه رئيس التحرير الدكتور هيكل فأسرع إليه ، وكان عنان من رجال محمد حسين هيكل المقربين إليه ، وكنا نحن الشباب لانحب هيكل ولا صاحبه محمد محمود باشا . فقد كانت تلك أيام وزارة محمد محمود واليد الحديدية وتأديب الشعب المتمرد . وكان جيلنا لايهتم بالسياسة الدولية . لأن بلدنا مصر كان من ضحاياها . وأصحاب تلك السياسة إذ ذاك كانوا جماعة من قطاع الطرق . وإذا كان هتلر نمراً مخيفاً يهدد ويتوعد فإن رجال حزب المحافظين البريطانيين كانوا ثعالب وذئابا يمثلهم فى بلادنا لورد سخيف صبيانى التصرفات يسمى اويد جورج ويمثلها فى بريطانيا أمثال تشيرشل وإيدن وإيرنسست بيفان ومن على شاكلتهم . ولكن محمد عبدالله عنان كان كاتباً صاحب أسلوب وعنده علم كثير وجدية فى الكتابة . ومن ثم فقد كنا نقرأه إعجاباً به لا بما يكتب . ولكن صلتى بعبدالله عنان فى لجنة التأليف الترجمة والنشر كانت أوثق وأكبر . فهنا كنت ألقى عناناً المؤرخ والأديب ،

ولم يكن قد دخل ميدان الأندلسيات دخوله الشامل بعد، وإنما أنا كنت معجباً جداً بكتابيه عن الجمعيات السرية وعن مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام . وهذا الأخير كان فعلا من الكتب الجيدة التى تأثرت بها كثيراً .

* * *

وتمضى السنوات وأذهب إلى أوروبا وأعود منها متخصصاً فى التاريخ الأندلسى ، والتقى بمحمد عبدالله عنان فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فأجده قد فرغ أو كاد من ترجمة كتاب يوسف أشياخ عن الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين وكنت أعرف الكتاب وهو عندى فى لغته الألمانية ، وكنت أراه كتاباً مجيداً وعسيراً على القراءة ، فأعجبت بعنان وعلا مقامه فى نفسى ، وبدأت الصلة الوثيقة بينى وبينه . وبدأ عنان يوغل فى دراساته الأندلسية ليكتب تاريخ الأندلس الذى يخلد ذكره ويضعه فى مكانه الحق فى تاريخنا الفكرى والعلمى . وكنت قد زرت أسبانيا وبدأ اتصالى المباشر بالمستشرقين فيها سنة ١٩٤٠ ، ثم زرتها فى صيف ١٩٥٠ لأدرس إمكانيات إنشاء معهد للدراسات الأندلسية فى مدريد ، وعدت إلى مصر بزاد وافر من الكتب والمراجع الأسبانية ، ولقيت الأستاذ عنان وحدثته بتجربتى وما عندى . فأجد الرجل الذى كان يقارب الستين من عمره يدرس الأسبانية ويقرأ كتبها دون صعوبة ، فيزداد إعجابى بهذا الرجل القوى العزيمة الذى تخلى عن كل اهتماماته الصحفية والأدبية ليهب نفسه لتاريخ الأندلس . وكان كتابه عن ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى قد طار صيته وطبع ثانية وثالثة ، وكان الدكتور طه حسين قد تولى وزارة التعليم فحدثته عما كان الأستاذ محمد شفيق غربال قد عهد إلىّ فيه من كتابة مذكرة فى موضوع معهد مدريد ، وطه حسين — بروح المبادرة التى كانت فيه والفروسة التى امتاز بها فى العمل — قد أنفذ قرار إنشاء المعهد وعهد فى الإنشاء إلى أخى وأستاذى د . سليمان حزين ، وحسنا فعل فإن د . حزين بالموهبة الإدارية وملكة التنظيم والروح العلمية التى هى بعض أدواته عرف كيف ينشىء المعهد على أساس علمى متين ، وأذهب إلى أسبانيا فى صيف ١٩٥١ لكى أزور مكتبة الاسكوريال

ومكتبة دير شانت مانقش (سيانكاس) قرب بلد وليد فى شمال أسبانيا ، وهناك ألقى د . عبد العزيز الأهوانى رحمة الله عليه وكان عضواً فى هيئة المعهد ، ونتفق معاً على أن نتلاقى فى الأسكوريال وننزل فى فندق ميراندا هناك ، وننزل إلى قاعة الطعام فنجد هناك عبد الله عنان : تجشم الرحلة إلى الأندلس ليتقن الأسبانية ويطلع على الأصول . ونشترك فى العمل فى مكتبة دير الأسكوريال . وأقول لعنان : إننى ذاهب من هنا إلى سيانكاس لأطلع على الوثائق العربية فى ديرها فيصر على أن يصحبنى إلى هناك . وكنا فى أوائل سبتمبر وقد أهلت بوادر الخريف . وسيانكاس كما يعرف أصحابنا وزملاؤنا فى الأندلسيات — وخاصة الدكتور محمود على مكى أخى وزميلى فى الأندلسيات — بلد صغير جدا ليس فيه إلا الدير تقريبا وفى هذا الدير الجليل فى تلك البلدة الصغيرة الباردة الروح والجو إلى الغرب من بلدوليد. أخذنا فى العمل ، وتصادف أن أهلّ الخريف مبكراً ذلك العام . وهطلت الأمطار الغزار وهبت رياح عاتية ، ولم يكن أحد منا قد تأهب لذلك كله بمعطف . ويذهب الأستاذ عنان ويشترى غطاء رأس من الطراز الأسبانى المعروف فى أوربا باسم البيريه وفى أسبانيا باسم البوينا . ومن ذلك اليوم لم أره إلا بهذه البوينا التى أصبحت علماً عليه . حقاً لقد سبقه إليها توفيق الحكيم ولكن بيريه الحكيم كان من النوع الأنيق الواسع الحافة الذى يسميه الفنانون الفرنسيون La pampluche .

وفى تلك المناسبة رأيت من إصرار عنان على الدرس والبحث مازادنى به إعجاباً وله حباً . فقد كان نومنا فى نزل صغير تديره سيدة طيبة القلب تسمى سنيورا رافلييلا . وكانت قاعدة المطالعة فى الدير كلها من الحجر ولايدفئة شيء ومجموعات الوثائق تصلنا فى عُلَبِها وعنان وأنا فتصفح وتقرأ ونقيد تحت إشراف رهبان من الفرانشسكان لايصرفون النظر عنا أبداً ، والفرنشسكان على مانعرف أسود فى ميادين حرب المسلمين . فكأنهم كانوا ينشددون فى مراقبتنا خوفاً على الوثائق منا . فكنا نتعمد تخطى الوقت المحدد لنستسير حفيظتهم ، ثم نعود بعد غروب الشمس ونحن نرتعد من البرد . ويحين موعد العشاء متأخراً . وندخل فى العاشرة قاعة تشبه قاعة الطعام فى السجون . والسيده رافييلا تضع أمام كل منا طبقاً

متواضعاً حزينا يسمى البينتا فريتاكون أويفو plimictnta fritaconliuevo (فلفلا روميا مقليا بالزيت مع بيضة) ورغيف خبز جافى القشرة لو ضربت به الحائط لارتد إليك ، وتعقب ذلك إماموزة أو تفاحة . ثم ننهض ونحن أجوع مما جاسنا ثم يدعونا رئيس الديارين للعشاء ذات يوم ليستطلع حقيقة أمرنا فى الغالب .. ونجلس مع الرهبان فى قاعة مجلدة بالخشب مدفأة بنار الخشب ، ويدورون علينا بحساء ساخن جميل ثم طبق مفعم بالمكرونة وقطعة طيبة من اللحم . والختام سبت فاكهة لامجرد موزة أو تفاحة يتيمة .

وفى أثناء ذلك يتناول الرهبان أكواب النبيذ وعلائم الصحة والعافية على وجوههم ويقول عنان لكبير الديارين : أهذا أيها السادة طعامكم فى الغداء والعشاء؟ ويقول الرجل فى أدب جم : نحن نعرف أننا ظلمناكم بهذا الطعام المتواضع ، ولكن هذا هو كل ما تسمح بتقديمة نظم هذا الدير القاسية . وفى أثناء عودتنا إلى النزل ، وكل منا منكمش فى نفسه واضع يديه فى جيوبه من شدة البرد يقول الأستاذ عنان : إذا كان هذا طعام الديارين المخشوشنين فماذا يكون طعامنا إذن ؟

وبعد انتظام العمل فى معهدنا فى مدريد واستقراره ابتداء فى سنة ١٩٦٠ أصبحت زيارة الأستاذ عنان لأسبانيا موسماً سنوياً نحتفل به ابتداء من شهر مايو ، كان يتحمل نفقات رحلته كل عام وإقامته على مدى شهرين وقد تستطيل إلى ثلاثة . وكان له فى دار المعهد القديمة ركن معروف وخاص به ، وعندما انتقلنا إلى الدار الجديدة للمعهد خصصنا له مكتبا جميلا عند مدخل المكتبة الأوروبية . وهذا العلامة الصديق الكريم يأتى كل صباح فى التاسعة بانتظام . ويظل يعمل فى مكتبه حتى الثانية بعد الظهر . ثم يذهب يتغدى ويعود فى الرابعة ليعمل إلى السابعة ، وقد نتغدى معاً ، ولكنه كان يفضل أن يكون الاجتماع على طعام العشاء ، لأن الناس فى أسبانيا إذ ذاك كانوا يستأخرون فى العشاء إلى العاشرة . فينفسح المجال للحديث فى شئون التاريخ والحضارة الأندلسية ، وكان هو إذ ذاك يؤلف تاريخه العام للاندلس ، وهو كتاب عظيم حقاً استكمل فيه على مدى سبع مجلدات شاملة لإعادة النظر فى كتابه عن ديوان التحقيق والمحاكمات

الكبرى ، ومع أن محمد عبد الله عنان لم يدرس التاريخ فى الجامعة إلا أنه دل فى كل كتاباته على ملكة تاريخية أصيلة فهو يقرأ كل المادة المتجمعة له بالعربية أو الأسبانية أو الإنجليزية أو الألمانية — وكان يجيدها جميعاً ، فإذا أحس أن المادة قد اكتملت له ليكتب فصلا من الفصول جلس يكتبه . وهو يكتب دائماً على ورق صغير ، ولا تكون كتابته إلا بقلم الكوبيا وكنا نتعجب لأن أقلام الكوبيا اختفت من الدنيا كلها وأبقيت عند عنان ، وكان يكتب بخط صغير دقيق ولكنه جميل القواعد كأنه سلاسل الذهب . وقلم الكوبيا الواحد كان لابد أن يكفى لكتابة مجلد كامل . وكان يستمر فى الكتابة به حتى إذا انبرى وعسر الإمساك به أخرج ماسورة معدنية دقيقة خاصة لأقلامه تلك ولَبَّس القلم الصغير فيه ومضى يكتب . ونادراً ما كان يشطب أو يكشط أو يغير شيئاً مما كتب ، لأنه لم يكن يكتب إلا إذا اكتملت العدة ، وهو تقليدى جداً فى كل ما يعمل ، فطبعة نفح الطيب القديمة التى خرجت من مطبعة بولاق هى الوحيدة التى يرجع إليها دون نظر إلى طبعة لايدن التى كنا نستعملها جميعاً . وهو لايستعمل الطبعة الجديدة من كتاب الاستقصا فى أخبار دول المغرب للسلاوى ولكنه لايرضى إلا بالطبعة القديمة وكذلك الحال مع مقدمة ابن خلدون وتاريخه . وكتبه تخرج إلى الناس فى ثوب واحد : الغلاف الأزرق والورق الجيد ، ولا أعرف له كتابا بغير هـذا اللون والهيئة . وناشره مكتبة الخانجى ولا يرضى بغيرها بديلا .

وكان لمحمد عبد الله عنان موقف ثابت من جماعة المستشرقين من أمثال ليفى بروفنسال وغرسية غومس ، ولكنه كان يحب ميجل آسين بلاثيوس ورامون منندث بيدل وأنخل جونثالث بالنثيا . والسر فى موقفه من بروفنسال وغرسية غومس أنه كان يحس عندهما تعصباً واستعلاء . وبالفعل لم يكن هناك اتصال علمى بين ليفى بروفنسال وعبد الله عنان أما غرسيه غومس فقد كان له من الإسلام والحضارة الإسلامية موقف غير حميد ، مع أن كل ما وصل إليه كان بفضل اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، فقد تبناه آسين بلاثيوس وأدخله المجمع الملكى الأسبانى ليحل مكان خليان ريبرا ، وكان ريبرا إنساناً عظيماً وعقلا وهاجاً . كان يجيد العربية قراءة ولايحسن تقويم

جملة واحدة فى الحديث أو الكتابة ، ولكن ذهنه الصافى كان يفتح له مغاليق المخطوطات ويهديه إلى اكتشاف حقائق بشىء يشبه الإلهام كما نراه فى كلامه على الموسيقى الأندلسية والأصول الإسلامية للعدالة والتشريع والقانون فى مملكة أرغون ولمحاته العجيبة عن ديوان ابن قزمان . وأما غرسيه غوس فأكثر ما يميزه إحساس دقيق بالشعر العربى ومعانيه وملكة أدبية فى الكتابة جعلته من أدباء أسبانيا أصحاب الأساليب الجميلة فى أيامنا هذه . وكان قد زار مصر شاباً ولقى شيخ العروبة أحمد زكى باشا وخف على قلبه فجعله من الجماعة التى يلقاها كل يوم فى داره فى الجيزة . والرجل تعلم فى مصر وأفاد منها كثيراً ، ولكنه عاد إلى بلده دون أن يتمرن المران الكافى على الكلام بالعربية . وأصبحت تلك مشكلته الكبرى فى علاقاته بنا وبالأجيال الشابة إذ ذاك من المستشرقين الأسبان . لأننا بعد أن أصبح لنا فى الدراسات الأندلسية معهد ومجلة منتظمة ونصيب واضح وصوت مسموع ، ساعدنا فى إنشاء طراز جديد من المستشرقين الأسبان : طراز يتعلم فى جامعاتنا ويختلط بنا ويشباننا ويتتلمذ علينا كما يتتلمذ على أساتذته الأسبان ، ويعود إلى أسبانيا وهو يتحدث العربية كما يتحدثها أترابه من الدارسين العرب ويرتبط بروابط الصداقة والصحبة مع شبابنا الدارسين ، ويتجه فى دراسته إلى الأدب العربى المعاصر وإلى العرب المعاصرين ومشاكلهم دون الاقتصار على دراسة الماضى وحده . وهذا الشباب الأسبانى الجديد يرتبط بنا أكثر مما يرتبط بغرسيه غومس وجيله ، ومعهد الدراسات الإسلامية فى مدريد يصبح أحب إلى قلبه وأقرب إلى مزاجه من مدرسة الأبحاث العربية La Escuela de Estudios Arabes التى تعرف كذلك بمعهد ميجيل آسين nolitulo notitetts niguel asin وهنا تشتد أزمة غرسيه غومس وجيله ومدرسته . فهو يحس أن مركزه كسيد الدراسات الأندلسية دون منازع قد تزعزع ، والمسئولية فى ذلك — كما رأى هو — تقع على عاتق معهد الدراسات الإسلامية ومن ينتمى إليه . وكان الرجل يستعد لمغادرة أسبانيا ليعمل سفيراً لبلاده فى العراق فيما أظن ولكنه يظل متربعاً على عرش

الدراسات الأندلسية وممسكا بخيوط السيادة ويتشبث بالسيطرة الكاملة على مجلة الأندلس Al Andalus التى تنشر الأبحاث التى يكتبها الباحثون الأسبان من المدرسة القديمة ـ مدرسة النظر إلى العرب والمسلمين وحضاراتهم على أنهم شعب دارس مضت أيامه ، وحضارتهم انتهت بلا رجعة . وكانت مجلة الأندلس مجلة جليلة جدًا ولكن دراساتها متحفيه ، وحتى إذا كتب غرسية غومس فيها بحثاً عن طه حسين مثلا فهو لايرى فيه إلا حارساً من حراس الماضى .

وكنا نحن غسوس غرسية غومس قدر جهدنا لأننا ذهبنا إلى مدريد لننشىء علاقات لا لكى نقطع علاقات ، ولكن محمد عبد الله عنان غير ملتزم بمثل هذه الاعتبارات ، وهو باحث عربى مصرى مسلم ، ومن زاويته تلك ينظر إلى الأشياء ويكتب التاريخ ، وهو يرى أن كل تراث الأندلس الإسلامى ملكه . وليس من حق غرسية غومس ـ بصفته أميناً على المخطوطات العربية فى مكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد ـ أن يحتفظ لنفسه بمخطوطات عربية ، ويقول إنه يريد أن ينشرها وهو لن ينشرها قط ، ويحتاج عنان لواحد منها وهو جزء قيم من تاريخ ابن حيان يدور على سنوات طويلة من حكم الحكم المستنصر ، ولاغنى لعنان عن هذا المخطوط لأنه يصل فى تاريخه إلى عصر الناصر لدين الله والحكم المستنصر ابنه . ولكن غرسية غومس يرفض الإذن له فى الاطلاع على المخطوط . وأذهب معه إلى مدرسة الأبحاث لمناقشة غومس ، وأنا أتحدث فى رفق محاولا إقناع الأسبانى العنيد ولكن عنان يرى أن هذا الرجل مخطئ متعصب وأنه مخطىء كل الخطأ فى موقفه هذا ، ومن حق عنان وأى باحث آخر أن يطلع على ذلك المخطوط ، ويقف غرسية غومس غاضبا ويقول لعنان : إن هذه المخطوطات ليست ملكاً لك وأنت مخطىء إذا أنت وقفت منى هذا الموقف ، وأنا لن أتنازل عن حقى العلمى وسأحيل الأمر إلى مشكلة سياسية ! . . وقد بالفرنسية ، ويقف غرسية غومس وقد استبد به الغضب . والأسبان فيهم مثل تلك الحالات : الغرور والعنف وحدة اللسان . وتصدر عنه كلمات لاتليق ، ويبادله عنان حدة بحدة وأخيراً يقول غومس بصوت يرتجف من الغضب : أنت أيها السيد تأتى إلى بلدنا لتهيننا . وأنا

الآن لن أسمح لك باستعمال أى مخطوط من أملاك أكاديميتنا ، وإذا كنت أنت عنيدًا كالصخرة فأنا عنيد كالبغلة

Si Ud es terco como una roca soy yo cabezudo cms una mula

ويسمع عنان لفظ « البغلة » ويحسب أن الرجل أهانه . ويصك الرجل بكلمة لا أذكرها ولكنها كانت بالفعل فى غاية العنف . وننصرف وعنان لايكاد يملك نفسه غضباً وحمية . ونذهب معاً إلى مطعم لنتناول العشاء ولكنه لايأكل لأنه كان مشغولا بفكرة اتخاذ إجراءات رسمية حيال غومس .

ومثل هذا الموقف . يكشف لنا عن الكثير من خصال عنان ، فهو رجل جاد صارم، وهو صلب عنيدلايتنازل عما يرى أنه حقه ، وهو محام يؤمن بالقضاء والمحاكمات ، وككل محام يتحول كل خلاف عنده إلى قضية هو محاميها الذى لا يهدأ له بال حتى يكسبها .

* * *

وأظن أن هذا الحادث كان له أثر بعيد فى نفس عنان . لقد ظل يتردد على أسبانيا ليدرس ولكن اهتمامه يتجه إلى المغرب . لقد استمر يأتى إلينا فى مدريد كل عام ، وكان يشاركنا مشاركة فعالة فى دورات الأبحاث الأندلسية التى كنا ننظمها فى أسبانيا كل عام : كان معنا فى دورات غرناطة وقرطبة وبلنسية ، ولا أنسى مرحه ودعاباته ونحن فى يلنسية فى خريف عام ١٩٦٤ م . كان مرحًا سعيدًا ضحوكًا . وزادت سعادته عندما علم أن شابًّا عراقيًّا تمكن من اختلاس صورة من مخطوطة ابن حيان عن الحكم المستنصر وحققها ونشرها . وقد أثار ذلك كل كوامن الغيظ عند غومس ، وغضبه علينا جميعًا بما فى ذلك الدكتور مكى الذى كان إلى ذلك الحين يحبه ويعجب به ، فهو أستاذه وأعد دراسته للدكتوراه تحت إشرافه ، ومكى كان يعينه على ما يلقى من مشاكل النصوص العربية ويكتم معاونته عن الناس بما عرف عنه من الخلق الكريم ، ولكنه الآن عدو فى نظر غومس فهو المسئول عن تسريب المخطوط إلى الشاب العراقى .

لقد تغيرت الأحوال الآن بيننا وبين غومس . فقد عرف مع الزمن أننا لسنا أعداءه ، وأنه ليس سادن التراث الأندلسى

وأن أهل العلم أسرة واحدة ، وقد اجتهدت في ذلك ، وفي آخرة كنا في مدريد ، دعانا للعشاء عنده وذهبت مع أخي الدكتور مكي حيث استقبلنا حفيًا ، وأهدانا ثلاث نسخ من كتاب بديع صغير ألفه عن ابن قزمان : واحدة لي وواحدة لمكي والثالثة لعنان . واتصلت به واتفقنا على اللقاء في مكتبة الخانجي وحدثته بما كان وقدمت له النسخة. فأخذها ووضعها في حقيبته وقال : لا تحدثني عن هذه البغلة!

* * *

رحم الله محمد عبد الله عنان ، فقد كان شخصية فريدة في بابها . كان عاملًا صبورًا دؤوبًا لا يكل ، وكان رحالة لا يكل عن الرحلة ، وكان رجلًا صلبًا ذا عزيمة ، ترك المحاماة إلى التاريخ وأبدع فيه وخلف لنا تراثًا مجيدًا في التاريخ الأندلسي وكتبا أخرى كثيرة في التاريخ الإسلامي ولكنه ظل في قرارة نفسه محاميًا يتناول تاريخ الإسلام ومشاكله فتتحول في يده إلى قضايا هو محاميها . وهو محامي العروبة والإسلام .

لقد عمل في المغرب بعد ذلك سنوات طويلة وخلف هناك أثرًا باقيًا حتى لقد قال جلالة الملك الحسن : إنه ن أعاظم من عمل في المغرب من المصريين . وأتم خلال تلك الحقبة تحقيقه ونشره لكتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة للسان الدين ابن الخطيب ، ودخل هذا المجمع الكريم يحمل زادًا من العلم هو مفخرة لنا جميعًا ، وبعد الرابعة والثمانين كف عن الذهاب إلى المغرب ولكنه أعاد طبع كل كتبه القديمة وهي اليوم ذخرًا لمكتبتنا التاريخية وكلها ذات غلافات زرقاء وورق جيد يختاره هو بنفسه ،ويطبعها كلها تحت إشرافه ويعهد في توزيعها إلى مكتبة الخانجي . لا يبدل ولا يغير . وعنان هو دائمًا عنان.

حسين مؤنس
عضو المجمع

كلمة الأسرة ألقاها الدكتور محمود على مكى

السيد الرئيس

السادة أعضاء المجمع

سيداتى وسادتى

أود أن أعبر أولًا عن عميق شكرى لأسرة فقيدنا الراحل العظيم الأستاذ محمد عبد الله عنان على ما تفضلت به علىَّ حينما اقترحت أن أتولى الرد على كلمتى التأبين اللتين استمعتم إليهما من السيد الرئيس ومن الأستاذ الدكتور حسين مؤنس . لقد كانت هذه اللفتة الكريمة من جانب الأسرة تشريفًا لى حينما عدتنى فى صورة من الصور فردًا منها ، وإننى حقًّا لأعد نفسى ابنًا روحيًّا لأستاذنا العظيم محمد عبد الله عنان ومريدًا من مريديه .

ومن ثم فإنى أقدم باسم أسرة الراحل العظيم خالص الشكر للمجمع الموقر على إقامة هذا الحفل لتأبين فقيدنا وفقيد العلم والفكر . وأخص بالذكر أستاذنا الجليل الدكتور إبراهيم بيومى مدكور رئيس المجمع الذى أذكر أنه كان أول المعزين فى وفاته وكانت كلمته تعبيرًا عن مشاعر جميع أعضاء المجمع وأسرته نحو زميل فقدناه وهو لا يزال موفور النشاط جم العطاء . ولا يفوتنى أيضًا أن أسجل خالص التقدير للكلمة التى ألقاها باسم المجمع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، ولا غرو فقد كان مؤرخنا وكاتبنا الجليل صديقًا وفيًّا للفقيد ، ورفيقًا ملازمًا له فى رحلة الكفاح فى سبيل تحرر الفكر وأصالة الثقافة ، وقد جمعتهما لسنوات طويلة صحبة حميمة وعمل مشترك فى ميدان واحد من ميادين الدراسة التاريخية ، أبلى فيها كل منهما أحسن البلاء .

لقد كان محمد عبد الله عنان علمًا من تلك الأعلام الشامخة التى أرست فى مصر وفى الوطن العربى منذ مستهل هذا القرن أسس النهضة الفكرية الكبيرة التى آتت

أكلها بعد ذلك ، متمثلة فى الأجيال المتوالية التى قرأت له وتعلمت منه وترسمت خطاه

ولد فقيدنا الكبير والقرن الماضى موشك على نهايته ، وتخرج من كلية الحقوق وهو فى العشرين من عمره ، واشتغل بالمحاماة ، غير أن الأدب والكتابة استهوياه منذ مطلع شبابه ، فاشتغل بالصحافة ، وسرعان ما لمع اسمه بصفته واحدًا من أعلام الكتابة وكان ينشر مقالاته فى عديد من الصحف على رأسها « السياسة الأسبوعية » إذ عهد إليه بتحرير باب السياسة الدولية والشئون العربية ، فتألق اسمه إلى جوار أعلام الكتاب فى هذه الصحيفة من أمثال محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، ومحمود عزمى وغيرهم . وأعانته إجادته الفائقة للغات الأجنبية الإنجليزية والفرنسية ، والألمانية على العمل فى ميدان الترجمة ، فنقل إلى العربية كثيرًا من الآثار الأدبية الأوربية . ثم استهوته منذ تلك السنوات الكتابة فى التاريخ ، وأغرته ثقافته — القانونية الواسعة بأن يختار لدراساته التاريخية المبكرة تلك القضايا الكبرى فى التاريخ الإنسانى عربيا كان أو أوربيًا .

فأفرد كتبًا فى تاريخ المؤامرات السياسية وتاريخ الجمعيات السرية والحركات — الهدامة ، وديوان التحقيق ، والمحاكمات الكبرى والمذاهب الاجتماعية الحديثة . كما أن حسه التاريخى الدقيق هداه إلى الاهتمام بتتبع المواقف الحاسمة التى كانت يتوقف عليها مصاير الدول . ومن هنا كان كتابه الذى ترجم إلى الإنجليزية « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » .

وكانت عناية المثقفين خلال الثلاثينيات موجهة إلى تأصيل الروح القومية وتأكيد الاتجاه المصرى . وكان ذلك أمرًا طبيعيا إذ كانت هذه هى سنوات الكفاح من أجل الاستقلال . غير أن محمد عبد الله عنان استن لنفسه طريق العلم ليخدم به القضية القومية ، لا عن طريق الاستثارة السياسية المباشرة ، بل عن طريق البحث العلمى الخالص . وهكذا بدأ اتجاهه نحو التاريخ المصرى ينفض عنه الغبار ، فألف فى هذا الميدان عدة دراسات تعد من أجل ما كتب فى التاريخ المصرى الإسلامى وأكثرها طرافة منها « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » ، و « مؤرخو مصر الإسلامية »

و « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعـوة الفاطمية »، و « تاريخ الجامع الأزهر ». ومما يستحق التنويه أن الفقيد حينما نشر كتابه هذا عن الأزهر الشريف فى سنة ١٩٤٢ كان أول من دعا إلى الاحتفال بالذكرى الألفية لإنشاء الجامع الأزهر ، فقد وافق التاريخ الهجرى لهذه السنة وهو ١٣٦١ هـ ذكرى مرور ألف عام على تمام بناء هـذا المركز العلمى العظيم ، غير أن دعوته لم تجد آنذاك آذانًا صاغية بسبب ظروف الحرب العالمية . ثم كرر هذه الدعوة فى سنة ١٩٤٦ وكانت توافق سنة ١٣٦٥ هـ . وهو التاريخ الأنى لبدء الحياة الدراسية الجامعية فى الأزهر فى صفر سنة ١٣٦٥ ، غير أن الحكومة لم تتحرك لتلبية هذه الدعوة التى كانت نابعة من غيرة محمد عبد الله عنان على تخليد هذه الصفحة المشرقة من تاريخ مصر والإسلام . وأخيرًا أثمرت دعوته حينما احتفلت مصر بالذكرى الألفية الميلادية لمدينة القاهرة ولبـدء إنشاء الأزهر فى سنة ١٩٦٩ ، فكان ذلك الاحتفال الكبير الذى كان له صدى عالمى .

على أن محمد عبد الله عنان يغير مسار دراساته التاريخية منذ سنة ١٩٤٣ ، من ضيق الاتجاه المحلى المصرى إلى سعة الاتجاه العربى الإسلامى ، ولكنه وهو المؤرخ المؤمن بالتخصص يختار من هذا الاتجاه الإسلامى ميدانًا محددًا هو الدراسات الأندلسية ، وسرعان ما يتحول إلى واحد من روادها العظام . وقد كان تاريخ الأندلس دائمًا يستهوى الناس منذ أوائل هذا القرن ، غير أن كل ما كان يكتب فى هذا الميدان كان منطلقًا من اندفاعات عاطفية بعيدة عن دقة العلم ومنهجيته . أما محمد عبد الله عنان فقد عرف كيف يستكمل أدوات المؤرخ الجاد من معرفة دقيقة بالمصادر مطبوعة ومخطوطة ، عربية وأوربية ، ثم رأى أن المنهج لا يستقيم إلا إذا عرف مواقع الأحداث على الطبيعة ، فكانت رحلاته المتكررة إلى إسبانيا التى بلغت سبع عشرة رحلة منذ سنة ١٩٤٣ حينما أصدر المجلدين الأولين من موسوعته الكبرى فى التاريخ الأندلسى ، وخلال هذه الرحلات تعلم اللغة الإسبانية وأجادها قراءة وترجمة ورجوعًا إلى شتى المصادر والأبحاث . وبهذا أتم تلك الموسوعة الأندلسية الضخمة

التى شملت تاريخ الأندلس كله من الفتح حتى نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين هذا فضلًا عمَّا أنجزه من دراسات أُخرى فى الميدان ذاته ، مثل دراسته عن ابن خلدون وتراثه الفكرى ولسان الدين ابن الخطيب ، وما حققه من مصادر أندلسية ، مثل « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، و « ريحانة الكتاب » . وأُضيف إلى ذلك كتابه عن « الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا » ، وهو ثمرة رحلاته العديدة إلى هذه البلاد .

كان محمد عبد الله عنان رجلًا متجردًا للعلم يخدمه فى تبتل المتصوف ، وما أكثر ما كان يتجشم من المشاق فى تلك الرحلات من أجل الاطلاع على مخطوط نادر أو معاينة قلعة داثرة ، غير عائبٍ بكلف الأسفار ، ولا آلٍ جهدًا ولا مالًا فى سبيل خدمة العلم الذى وهب له نفسه . على أننا نحمد الله على أنه جزاه عن ذلك خير الجزاء ، فقد لقى فقيدنا الراحل من تكريم الدولة ، والعلماء ورجال الثقافة فى حياته ما هو أهل له ، إذ منحته الدولة جائزتها التقديرية فى سنة ١٩٧٦ ، ثم كان أعظم تكريم له هو انتخابه فى السنة نفسها عضوًا فى مجمعكم الموقر . وقد شارك منذ هذا التاريخ فى أعمال المجمع مواصلا جهوده فى خدمة التاريخ الأندلسى والمغربى حتى اختاره الله لجواره .

على أن ذلك العكوف على العلم لم يصرفه أبدًا عن واجبة حيال أُسرته وأصحابه . وتلاميذه . فقد كان نعم الزوج لرفيقة حياته وشريكة كفاحه . ونعم الأب لبنيه وأهل بيته ، ونعم الصديق لأصفيائه ، وخلصائه ، ونعم الأستاذ والموجه لتلاميذه والناهلين من فيض علمه .

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته . وألهمنا وألهمكم الصبر على المصاب فيه .

سيدى الرئيس .. سيداتى وسادتى

من جديد أُوجه إليكم جزيل الشكر باسم أُسرة الفقيد على هذا الحفل وعلى عزائكم الجميل فى مصابنا . وأُوجه التحية إلى الأُستاذ الدكتور حسين مؤنس على كلمته الرقيقة النابعة من صادق الود . وأبتهل إلى الله ألَّا يريكم مكروهًا وأن يجنبكم كل سوء .

محمود على مكى
عضو المجمع

في الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ٢٦ من جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ (الموافق ٢٥ من فبراير سنة ١٩٨٧ م) اقام المجمع حفـــل تأبين للمرحوم الأستاذ على الفقيه حسن عضو المجمع .

وفيما يلى ما ألقى من كلمات فى الحفل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

أيها السادة :

نودع اليوم شيخاً من شيوخ ليبيا وواحدا من رجال الرعيل الأول الذين دافعوا وناضلوا فى سبيل استقلال البلاد . وراع المجمعيين مع هذا الماضى القديم صمته وهدوؤه ، ورب صمتٍ أبلغ من كلام كثير . والصمت حكمٌ وقليلٌ فاعله ، وإلى جانب هذا الصمت امتاز فقيدنا رحمه الله بهدوء أخاذ وطأنينة نفس محببة . ولم يخل هدوؤه وصمته دون أن يغذى المجمع بغذاء فيه ما فيه من عمق ودقة . وسيتولى الأُستاذ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة كلمة المجمع فى هذا الفقيد الكريم ،والكلمة اسيادته .

(*) تم تأبين المغفور له الأستاذ على الفقيه حسن فى الجلسة الرابعة لمؤتمر المجمع فى دورته الثالثة والخمسين (مساء الأربعاء ٢٦ من جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ ، الموافق ٢٥ من فبراير ١٩٨٧م)

فى وداع على الفقيه حسن

للدكتور محمـد الحبيب ابن الخوجة

الحمد لله الأول الآخر الباقى الدائم بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . كتب على خلقه الفناء وأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وصلى الله على محمد عبده رسوله ، أكمل خلقه وأخشاهم له وأقربهم منه ، أمر بالصبر ونهى عن الجزع ، وتلطف بالمؤمنين يبصّرهم ويواسيهم بقوله : تعزوا عن موتاكم بى ، وأيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بى عند المصيبة التى تصيبه بغيرى . وإن فى الله لعزاء من كل مصيبة وعوضاً عن كل مُرزِئة ، ودركا من كل فائت ، وخلفا من كل هالك

والصبر أجمل والدنيا مفجعة
من ذا الذى لم يجرع مرة حزنا

سيدى الرئيس حضرات الأساتذة ، سيداتى ، سادتى : ذهب فى الخالدين زميلنا المنعم الشيخ الوقور الحليم على الفقيه حسن ، العربى الليبى الطرابلسى عن ثمان وثمانين حجة قضى أغلبها فى مجالات العمل السياسى الوطنى داخل بلده طرابلس ، وفى العناية بالأدب العربى تعريفا وتأريخا ونقدا ، وفى الاهتمام بالفكر الإسلامى تخليدا وإذاعة ونشرا .

وقد انتسب المقدس المبرور الراحل الكريم إلى مجمعكم الموقر فترة لا تقل عن ربع قرن ، حيث صدر القرار الجمهورى السابع والخمسين سنة ١٩٦١ بتعيينه عضواً جملة أحد عشر علما من أعلام الفكر العربى والإسلامى . فقدنا من بينهم الشيخين الكبيرين والعالمين الكريمين محمدا البشير الإبراهيمى ومحمدا الفاضل ابن عاشور ، اللذين سبقاه إن شاء الله إلى دار الخلد فى جنات النعيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقد كان الفقيه ينتمى إلى أسرة عريقة فى المجد والعلم ينحدر طرفاها من

محتدين كريمين وبيتين شريفين هما بيت الفقيه حسن ، وبيت الشيخ القرقني. ولم من أفراد عائلته والده القاضى العدل الشيخ محمد بن أحمد بن حسن ابن أحمد الفقيه حسن ، وعمه الماجد الفاضل الشيخ حسن بن أحمد الفقيه حسن ، وأخوه الشاعر المبدع رئيس الكتلة ومدير الأوقاف أحمد الفقيه حسن .

وكانت طرابلس مَنبتَه وهواه ، بها معاهد طفولته ، ومرابع شبابه ، ومستقر عزه ومجده . عاش بها مع أخيه أحمد الذى يكبره بثلاث سنين أحلى أيام الطفولة ، وأسعد أيام الشباب فلا غرو أن جاء ، على لسان شقيقه ولَهُه بها وترنُمه :

بلد لبست به كساء شبيبتى
وظفرت فيه من الصبا بمرادى
فهواؤه صنو الهوى ، ومياهه
ضرب ، وتربته الخصيبة جادى
والعيش حلو ، والحياة شهية
مع أسرتى فيه وأهل ودادى
واهـا لأيام صفت فى جوه
كالصحو بعد العارض المنقاد
فيها وفى ظل رعاية أبويه وصحبة
أخيه تعلم على الفقيه حسن العربية والتركية وشدا قليلا من الفرنسية . وكانت اللغتان الأوليان فى حكم الأساسية فى الولايات العربية القديمة العثمانية ، واللغة الفرنسية لسانا تحفظه علية القوم والطبقة الراقية من ذوى المكانة والنفوذ يتميّزون به . وبطرابلس أيضاً كان إقباله على دراسة الفقه الإسلامى على كبار شيوخ العلم فى عهده .

ولما بلغ السادسة عشرة من عمره ذ ب إلى الإسكندرية مع أخيه أحمد فأتقن بها علوم العربية وأسرارها ، ودرس الأدب وتمرس بفنونه وواصـل دراسة الفرنسيـة ابتغاء إجادتها ، وكان من الأساتذة الذين تعرف عليهم بثغر الإسكندرية وأفاد من دروسهم الأستاذ فيليب عطاء الله .

وحين عاد إلى مسقط رأسه فى سنة ١٩١٩ ، بعد خمسة أعوام قضاها فى الدراسة والطلب ، أقبل على تعلم اللغة

الإيطالية وحذق آدابها ، وكأنه بهذه الأَلسن المختلفة العربية والتركيـة والفرنسية والإيطالية ، وبهذه العلوم المتنوعة اللغوية والأَدبية والفقهية يعد نفسه لمعركة يعتمد فيها البيان لسانا ، والحق سلاحا ، من أَجل أن ينازل الطليان ؛ خصوم بلاده وأَعداءه المغتصبين له والمستعمرين ، فيدافع عن وطنه وقومه فى كل الأَصقاع وبكل لسان ومع جميع الأَجناس ، ويسعى لتحقيق وحدة ، الأَقاليم الثلاثة : طرابلس وبرقة وفزان فى نطاق بلده الكبير ليبيـا ، ويعمل لاسترداد العزة والكرامة واسترجاع الحرية السليبة ونيل الاستقلال .

وقد اضطلع بهذا الدور فعلا وعلى أَكمل الوجوه ودعا إلى الوحدة ، وكان مع أَخيه أَحمد بطرابلس الغرب يواجه أَحزابا سياسية مختلفة ذواتَ نزعات متباينة وتيارات متعددة ، بعضها كالاتحاد فهواه مع مصر يريد انضمام البلاد إليها ويرفض إمارة السنوسى ، وبعضها وهو نادى عمـر المختار كان لا يعنيـه غير العمل من أَجل وحدة البلاد وخروج الطليان منها وتحريرها ، وحزب الجبهة الوطنية المكون من زعماء العشائر والمتميز بالنزعة المحلية والذى يعمل على استقلال برقة والالتفاف حول السنوسى .

ولما أَعياهما الصراع ولم يستطيعا التعاون طويلا مع الزعامات التقليدية انفصل أَخوه أحمد الفقيه عن تلك المجموعة وكون الكتلة الوطنية الحرة فى مايو ١٩٤٦ . وكان شعاره وحدةَ ليبيا وقيامَ نظام جمهورى .

وعندما تكونت لجنة التحقيق الرباعية بواسطة الدول التى عقدت الصلح مع إيطاليا ، وزارت هذه ليبيا بين شهرى مارس ومايو ١٩٤٨ كانت الحريات غير متوفرة بطرابلس . فاحتجزت السلطات البريطانية راحِلنَا على الفقيه حسن ، حتى تحول بينه وبين الإدلاء برأْيه أَمام اللجنة . وبعد استقلال ليبيا ١٩٤٩ وقيام اللجنة الدولية المكلفة بوضع نظام لتشكيل الجمعية الوطنية حاولت هذه استمالة صاحبنا مغرية له بإسناد رئاسة الجمعية الوطنية إليه إن هو وافق على أن يكون أعضاء هذه الجمعية معينين

لا منتخبين ، فأصر رحمه الله على موقفه من وجوب إجراء الانتخابات العامة بصفة شاملة على أساس تعداد السكان فى كل من الأقاليم الثلاثة ورفض فى إباء العرض المقدم إليه من اللجنة وأقصى عن كل نشاط سياسى بحل حزب الكتلة الوطنية الذى انتهت إليه رئاسته .

وبجانب هذه الروح الوطنية والجهادية التى قامت عليها الدلائل الثابتة وكان أساسها ذلك التكوين الدينى والعلمى ، والمنهج التربوى الرشيد الذى نشأ عليه فقيدنا فى طرابلس والإسكندرية ، نلمح لديه شعورا عميقاً بالإسلام والعروبة و بدون شك من أثر البيئة العربية المسلمة التى ترعرع فيها وحاطته بكل عناية فشب على تقديرها والاعتزاز بها وورث منها معانى وخصالا جعلته طوال حياته يدعو إليها ، ويبثها فى الناشئة وفيمن حوله من الناس رغم هذا الزمن العصيب المتطور الذى طغت فيه المادة بخيرها وشرها على كل شىء ، وضعفت فيه الهمم ، وذهب الوازع الدينى ، وانحلت الأخلاق ، ودیست القيم ، وظهر التفسخ فى أكثر الأوساط حتى أصبح لسان حال مترجمنا وهو يحمل وقر هذه التغيرت المفجعات يردد قول الشاعر :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته
فسرهم وأتيناه على هرم

غير أن هذا الوقع المرير لم يُشع فى نفسه يأسا بقدر ما ملأها كمدا ، وظل الحزن الدفين على ما أصاب بنى جلدته يدفعه إلى مضاعفة الجهد لتغيير ما بمجتمعه وبالمجتمع الإسلامى من انقطاع عن الأصالة وصدوف عن التراث . وجهل بالتاريخ ، واندماج غير حذر ولا محدود فى مقومات الحياة المعاصرة التى تكاد تعصف بكل شىء من أصول حضارتنا ومميزات مجتمعاتنا وتزرع بيننا ألوانا من الحقد والكراهية والغرور وحب الذات ، فلا تلبث أن تظهر آثارها السيئة الماحقة فى تقسيمنا وتضليلنا ، وبث الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة ، وتمزيقنا حتى لا نقدر بعد ذلك على رأب الصدع وجمع الشتات وتوحيد الكلمة .

وبهذا الحافز الإيمانى العقدى كان يتحرك على الفقيه حسن فى طرابلس وخارج طرابلس وكان يعجبه أن يتحدث عن سلطان المسلمين وهيمنتهم الفكرية ، والحضارية فى البحر الأبيض المتوسط . ومن أجل ذلك خص قرطبة بالتعريف بما بلغته من شأو وأدركته من منزلة ، وأشاد بالمنصور بن أبى عامر وعلمه وذكائه وحذقه وحسن سياسته ، وصوره لنا أفضل تصوير بما رواه لنا عنه من أبيات يقول فيها :

رميت بنفسى هول كل عظيمة
وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى إلا جنان مشجع
وأسمر خطى وأبيض باتر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة
وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة
على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالى بالعوالى مثلها
وأورثناها فى القديم معافر
كما نوه بصقلية التى فتحها القاضى القيروان القائد أسد بن الفرات صاحب الأسدية وراوى المسائل عن الإمام مالك ابن أنس رضى الله عنه . ووصفها بقوله : وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة وتحدث عن النهضة العلمية بها إبان الحكم العربى فذكر من قادة الفكر من العلماء والأدباء بها ، الإمام المازرى الفقيه الكبير ، وابن القطاع اللغوى الشهير ، والشريف محمد الإدريسى الجغرافى الرائد ، وعبد الجبار بن حمديس الشاعر المفلق ، ومحمد بن ظفر الصقلى النحوى اللغوى الأديب .

ولربما كان أكثر احتفاء واحتفالا بأعلام من رجال الثقافة العربية والإسلامية من لغويين وفقهاء نبتوا بليبيا ، وكتبوا ودبجوا من الآثار العلمية ، والمصنفات ما عم به النفع وعدّ من الأصول والمراجع بين عامة العرب والمسلمين وحتى غيرهم . وذلك كجمال الدين محمد بن المكرم بن منظور الأفريقى المصرى صاحب لسان العرب الذى حسبه أو أراده راحلنا طرابلسيًّا .

والشيخ محمد بن محمد عبد الرحمن الخطـاب الطرابلسى صاحب مواهب الجليل على شرح مختصر أبى الضياء خليل فى الفقه المالكى .

وقد قوى هذه النزعة المحلية فيه فى التنقيب والتعريف برجالات طرابلس الغرب عبر مختلف العصور جهلُ الناشئة ببلاده كل شىء عن التراث الحضارى وتاريخ الفكر بليبيا : وتراجم رجالها وإرادةُ الائتساء بأعلام من المؤرخين القدامى الذين عنوا بهذا الجانب التراثى العظيم أمثال أبى الحسن على بن مخلوف الطرابلسى ، من رجال القرن السادس ومحمد خليل بن غلبون واضع كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار من رجال القرن الثانى عشر

وقد تبع هذين المؤرخين المتقدمين جماعة من العلماء والأدباء تسابقوا فى تدوين السـجلات والكتب فى فنى التاريخ والتراجم نعد منهم :

أحمد بك بن حسين النائب الأوسى الأنصارى الذى صنف كتابين فى هذا الغرض : أولهما المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغـرب يقع فى جزءين ، وثانيهما نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان

وكريم الدين البرمونى صاحب روضة الأزهار .

ومحمد بن مسعود مؤلف تاريخ ليبيا العام فى جزءين .

ومصطفى بعيو صاحب المجمل فى تاريخ ليبيا .

والفقيه اللغوى الأديب مفتى طرابلس الشيخ الطاهر أحمد الزاوى صاحب كتاب ولاة طرابلس من بداية الفتح إلى نهاية العهد التركى ، وكتاب أعلام ليبيا .

وقد انضم إلى هؤلاء جميعاً راحلنا الكريم بوضع كتاب أعيان ليبيا الذى ترجم فيه — متعمقا أو مستدركا — لكل ذى شأن ممن عرف من الأدباء والشعراء والساسة والعسكريين والمناضلين وأعيان البلد . وهو بهذا التأليف قد ضم سفرا جديدا لتلك المحاولات المتنوعة

الجيدة فى التعريف بالحركة الفكرية الحديثة فى بلاده .

وقد يتصل بهذا النوع من التأليف البحث القيم الذى تقدم به فقيدنا العزيز إلى المجمع فى دورته الثامنة والعشرين متحدثا عن الموسوعات والمعاجم اللغوية حديثا جامعا مفصلا فقد تعرض بالتعريف والتنويه بكل ما ظهر فى هذين المجالين فى اللغة العربية ، ثم قارن هذه الجهود بما صدر ويصدر فى أروبا فى هذا العصر عن المجامع العلمية من موسوعات ضخمة مثل لاروس القرن العشرين . ولاروس العام ، ولاروس الطبى والتجارى والزراعى ، ومثل دائرة معارف تريقانى . ودعا المجمع إلى تشكيل لجان علمية ذات اختصاصات متنوعة لوضع معاجم من هذا النوع على مراحل .

ولم تفت الأستاذ على الفقيه حسن العناية بالشعر وتقييمه بل تقويمه فى عصره وببلاده : فقد أظهر شديد قلقه لمامس القريض من لوثة وضعف وواجه ذلك بقوله : « وهؤلاء الشبان الذين ينادون بتحرير الشعر من الأوزان ، والقوافى ينشرون سخافات بين الناشئة ويفسدون ملكات طلاب الأدب العربى وكان الاحرى بانصار الادب وحماة لغة العرب الذين نبغوا فى هذا العصر من الشعراء بليبيا أن يسددوا ويقوموا هذا الفن ليعود رائعا جميلا كما كان على عهد المولدين والمجددين الموهوبين فى عصور الازدهار ، وكما تظهر آياته رائعة لدى المترسمين بخطى شعراء الصدر الأول فى الإسلام من أمثال شيخ شعراء طرابلس أحمد الشارف والأديب الكبير أحمد رفيق المهدوى .

وقد ترجم الفقيد بهذا القول عن الموقف الذى كان يلتزمه الأصلان من رجال البيان فى أكثر البلاد العربية والذى رفع عقيرته به أحمد الفقيه حسن حين قال عن الشعر العربى :

خاض الفحول بحوره وتمكنوا
منه فكان كلامهم كالبلسم
واستخرجوا درر المعانى فانجلت
عن كل متسق لها ومنظم

سنوا بذوقهم السليم طريقة
للشعر ضاق بها الغبى الأعجمى

هى رائد الشعراء قبلُ ولم تزل
للناشئين اليوم خيرَ مقوّم

دع مايقول الأدعياء ولا تشق
يوما بما قد زينوه فتندم

فئة أخلت بالقريض وأصبحت
بهرائها هدفا لكل تهكم

شذت عن اللغة الفصيحة وانتأت
عنها فما انصاعت لها بتكلم

حادت عن التجديد فيما تدعى
وتنكبت عن كل معنى قيم

وبقدر ما كان راحلنا الكريم يظهر من ضيق بالشعر الجديد فى بلده، كان أساه وحزنه مضاعفين بسبب ما نال الصحافة من مسخ. فإنها وإن لم تحتجب لم تكن المرآة المجلوة التى تنعكس عليها صورة المجتمع والحياة العامة كما أنها لم تكن أبدا لسان الحق الذى يعبر عن الرأى العام فى البلاد. أجل إن المتبع لتاريخ الصحافة فى ليبيا فيما بين ١٨٦٦ أو عهد الاستقلال يجد أولا صحيفة طرابلس الغرب الجريدةالرسمية الأولى، ثم مجموعة من الصحف والمجلات قبل الاستقلال يصدرها كتاب لا معون من رجال العلم والأدب والسياسة مثل مجلة الفنون وجريدة الترقى والعصر الجديد والكشاف والمرصاد، وأصدر حزب الإصلاح الوطنى اللواء الطرابلسى، وتبعت ذلك مجموعة أخرى منها: الرقيب والوطن والبلاغ وفى عهد الاستقلال ظهرت عدة جرائد ومجلات، مثل: برقة الجديدة والرائد والطليعة والحرية والميدان، ولم تعمر جريدة صوت الأحرار لسان حزب الكتلة الوطنية. وكانت أكثر هذه الصحف تتمشى وسياسة الحكومة فى كل طور شبرا بشبر وذراعا بذراع. وخانت هذه الصحافة الأمانة أو لم تقو على تحملها لعدة أسباب. ومن أجل ذلك اغتنم الفقيد على الفقيه حسن فرصة الحديث عن النهضة العلمية والأدبية فى ليبيا، فشكا بثه وحزنه وصدع بقوله:

والخلاصة إن حرية الرأى العام مفقودة بتاتا فى ليبيا فى كل الفترات التى

تولت فيها حكومات صورية وطنية . فإلى الله أشكو عجرى وبجرى من تعسف السلطات فى الديار الليبية ، والتى لا تقيم وزنا لما نص عليه الدستور فيها . فقد منعت أى نشاط سياسى أو قيام أى حزب يمثل الشعب ويدافع عن حقوقه فى اجتماعاته ونشراته وبياناته .

هكذا يمضى المجاهد المناضل من أجل حرية الكلمة والرأى ،والأسى يملأ جوانحه وصوت الحق مكبوت . ولعل الكلمات الطيبة التى دعا بها ، والسجلات الكريمة التى دونها والروح البناءة والعزيمة الصادقة الى نفخها فى الشباب الذى عاصره وأخذ عنه وتأثر به ، تُؤْتى ثمارها فى بلده وخارج بلده فى المجتمعات العربية والإسلامية كلها ، ولعل ذلك يُكتب لعلى الفقيه حسن حسنات فى صحيفته ويتقبل الله روحه راضية مرضية لما قدمت فيدخلها جنته ، ويرفعه بفضله وواسع رحمته مكانا عليا .

محمد الحبيب ابن الخوجة
عضو المجمع من تونس

في الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ٤ من رجب ١٤٠٧ هـ (الموافق ٤ من مارس سنة ١٩٨٧ م) أقام المجمع حفل تأبين للمرحوم الدكتور حسني سبح عضو المجمع .

وفيما يلي ما ألقي من كلمات في الحفل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

أيها السادة

لقد سعدت في مجمعنا هذا بصحبة نفر من شيوخ سوريا وعلمائها وأكتفي بأن أشير إلى من انتقل منهم إلى رحمة الله وفي مقدمتهم محمد كُرد علي ، وعبد القادر المغربي ، وكم كان لهما من جولات وصولات في التحليل والنقد أو في الرد والمناقشة ، وتلاهما زميلان آخران هما : الأمير الشهابي والدكتور حسني سبح كانا مثال الهدوء والأخذ والرد المثمر ، ولعل ذلك راجع إلى أن العقلية العلمية كانت الحكم الأول فيما يقولان ويقران ، وكم كان كلام الأمير أمير الكلام ، وكان زميله وصديقه حسني سبح يسبح في عمق لتحقيق الدلالة العلمية واختيار اللفظ الملائم له . وأحرص على أن أقرر أن لغتنا العلمية أفادت كثيراً من تحقيقه وتعليقه ، وكان يتابع مصطلحاتنا على القرب والبعد ويحمل معه جعبته في كل لقاء فيغذينا بأجود غذاء .

تغمده الله برحمته

وجزاه أحسن الجزاء

وسيقول كلمة المجمع فيه زميلنا وصديقه الدكتور عدنان الخطيب فليتفضل .

(*) أبن المغفور له الدكتور حسني سبح في الجلسة الحادية عشرة لمؤتمر الدورة الثالثة والخمسين (مساء الأربعاء ٤ من رجب ١٤٠٧ هـ الموافق ٤ من مارس ١٩٨٧ م)

كلمة المجمع فى تأبين الدكتور حسنى سبح

للدكتور عدنان الخطيب عضو المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

فجأنا الناعى فى الحادى والثلاثين من كانون الأول (ديسمبر) سنة ست وثمانين وتسعمئة وألف ، بخطب جلل ورزء أليم . إذ أعلن انتقال الزميل الكبير الدكتور حسنى سبح إلى الرفيق الأعلى ، وكان رحمه الله بيننا ، قبل أربع وعشرين ساعة ، جم النشاط ، كعادته ، دائب الحركة يصرف الشئون المجمعية بدمشق ، مما عرف عنه من جد وحزم ، ويهيئ للمجمع اشتراكا فعالا بندوة اتحاد المجامع العربية التى كانت على وشك الانعقاد فى عمان بدعوة كريمة من مجمع اللغة العربية الأردنى .

لقد كان أليما وقع نعى الفقيد الدكتور حسنى سبح عضو مجمعنا هذا ورئيس مجمع دمشق علينا وعلى كل مجمعى عرفه ، وعلى كل من يعنى بمشكلة تعريب التعليم الجامعى ، وبخاصة تعليم الطب باللغة العربية فى مختلف جامعات الوطن العربى ..

إن المقعد الذى خلا فى دمشق بوفاة الرئيس حسنى سبح لن يملأه أحد أبدا ، لا لأن حسنى سبح كان طبيبا حذق الطب ،فنا مارسه ،مهنة هام بحبها سبعا وستين سنة كاملة فحسب ، ولا لأنه كان طبيبا درس الطب علما فأتقنه ثم درسه أجيالا تلاحقت ، أستاذا أقر بفضله الأساتيذ العظام ؛ ولا لأنه كان أستاذا تقصى علوم الطب ، منقبا عن مصطلحاتها ، متتبعا جذورها اللغوية ، مضيفا إلى ثروته الضخمة منها ما فى كتب التراث العربى الإسلامى من مصطلحات تتصل بالطب وغيره من العلوم ، نعم ليس لكل هذا فحسب ؛ بل لأنه كان كل ذلك ، إضافة إلى أنه كان إنسانا مرهف الحس ،يألم لكل ما قد يلم بأخيه الإنسان ويعمل على تخفيف آلامه ما تمكن ، كما كان الوفاء جباة فيه خبره القريب وعرفه البعيد .

لقد كان حسنى سبح عالما فذا ، وكان عصاميا بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معان ، صعد سلم العلم درجة درجة إلى أن أشرف عليه ، غير متكىء إلا على عزيمته الصلدة وقوة إرادته الفائقة وإلا على جلده على القراءة والبحث ، وصبره على المتابعة والنبش .

دخل أحد المتأدبين يوما على حسنى سبح ليتلقى منه نسخة عن ترجمة حياته بقصد نشرها فيما يعكف على إصداره من موسوعات تضم تراجم طوائف من العلماء السوريين ، ولاحظ المتأدب المؤرخ أنّ الترجمة التى تلقاها مقتضبة فى ذكر نشأة الفقيد وتحصيله العلوم غير الطبية ، فإذا به يسأله بإلحاف قائلا : أنا أريد تفصيلا أوفى عن طلبك العلم كما أريد أسماء شيوخك فيه ، فما كان من الفقيد إلا أن أجابه ، وفى نبرات صوته شىء من الحدة عُرف بها : أنا ليس لى شيوخ ، أنا علّمتُ نفسى بنفسى . واستاء الأديب من هذا الجواب فترك الجلسة مغاضباً ، فاضطررت بعدئذ إلى بذل جهد لإقناعه بأن تلك الإجابة لا تتضمن أىّ إهانة ، كما توهم ، بل هى تعبير صادق عن حقيقة واقعة ، وأنّ حدة النبرات التى أزعجته ما كانت إلا ردة فعل لإلحافه فى السؤال عما لا وجود له .

ولد حسنى سبح حوالى منتصف العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، قلت : « حوالى » وأنا أعلم أن قيود الأحوال الشخصية التى صُنعت سنة ١٩٢٢ بعد احتلال سورية من قبل المستعمرين الفرنسيين تشير إلى أنّ الفقيد ولد فى تمام القرن التاسع عشر ، تحويلا عن القيد العثمانى المسجل بالتقويم الرومى الذى ابتدعه الأتراك العثمانيون ، غير أن أدلة عديدة تؤكد لى أن خطأ وقع فى تلك القيود . فمن الثابت أنّ حسنى سبح التحق طالباً فى المدرسة الطبية العثمانية ببيروت سنة ١٩١٣ . فهل يصدق أحد أنّ يافعا فى الثالثة أو الرابعة عشرة من عمره كان يسجل فى مدرسة طبية ، مهما كانت درجة نبوغه ، قبل خمس وسبعين سنة من اليوم ؟!

* * *

لقد كانت البلاد الشامية فى أخريات القرن التاسع عشر جزءا من الدولة العثمانية ، وكانت هذه الدولة قد استقرت تحت وطأة حكم السلطان عبد الحميد الاستبدادى ، بعد أنْ شرد كبار الولاة من الأحرار المطالبين

بإعادة الدستور مقصيا إياهم عن السلطة دون غيرهم، ممن كانوا يلونهم ويعملون سرًّا على تقويض حكمه ، بينما كان الأتراك الطورانيون الذين عُرفوا باسم جماعة « الاتحاد والترقى » ، متغلغلين فى الجيش يتآمرون على خلع السلطان ، تساندهم فى ذلك فئات من العرب كانت منخدعة بهم غافلة عن حقيقة أهدافهم وما كانوا يبيتونه لعرب الدولة العثمانية .

فى بداية هذه الحقبة من حياة الدولة العثمانية كان فقيدنا حسنى سبح قد رأى النور للمرة الأولى ، وما أن أتقن القراءة حتى أخذ يلتهم كل ما تقع يده عليه من منشورات وفصول مما كان يكتبه رجال النهضة العربية من تلامذة الشيخ طاهر الجزائرى أمثال محمد كرد على ، وفارس الخورى وعبد الكريم الخليل وعبد الرحمن الشهبندر ، وغيرهم من الروّاد الأوائل ، الذين كانوا كلهم يدعون العرب إلى النهوض واليقظة والعملِ على إعادة مجدهم المفقـود مؤكدين أنّ ذلك لا يتم إلا إذا تمسكوا بلغتهم الفصحى وأعلوا شأنها ، وأقبلوا على تحصيل العلوم العصرية المختلفة وبرعوا فيها .

واستجابت نفسُ فقيدنا إلى تلك الدعوة ، فعزم على دراسة الطب ، ولما حان وقت الانتساب إلى المدرسة الطبية العثمانية القائمة منذ سنة ١٩٠٣ فى دمشق ، كان من كيد الأتراك ، الاتحاديين للعرب أن أمروا سنة ١٩١٣ بنقل هذه المدرسة إلى بيروت . غير أن إبعادها عن دمشق لم يحل بين الفقيد وبين تحقيق رغبته ، فقصد بيروت ، وانتسب إلى المدرسة المنقولة إليها ، حتى إذا ما حلت سـنة ١٩١٤ وزجّ الأتراكُ الاتحاديون الدولةَ العثمانية فى أتون الحرب المستعرة إلى جانب ألمانيا ، قاموا بإغلاق المدرسة ، تاركين طلابها يتشتتون ساهمين لا يعرفون ما يصنعون .

على أنّ إغلاق المدرسة لم يكن ليفل من عزيمة فقيدنا أو يوهن إرادته أو يثنيه عما يطمح إليه من دراسة الطب فأخذ يتابع ما يُلقى من مقررات فى مدرسة الطب اليسوعية يجمع مااستطاع جمعه من كتب أو محاضرات أو ملخصات طبيّة ، ويعكف عليها يقتلها درساً كأنه يتهيأ لدخول الفحص فيها ،

ونجح مع بعض زملائه فيأخذ موافقة الدولة على أداء الامتحانات التى كانت تُجرى فى المدرسة الطبية الفرنسية ، فلما كانت سنة ١٩١٨ وضعت الحرب أوزارها ، وكانت الدولة العثمانية فى عداد خاسريها ، فقُطِّعت أوصالها وتوزَّع المنتصرون أسلابها . وكان الفقيد فى عداد طلاب السنة الخامسة

ودخل جيش الثورة العربيّة دمشق فى أخريات أيلول (سبتمبر) من عام ١٩١٨ ، وفى الشهر الذى تلاه أعلن عن قيام أول دولة عربيّة مستقلة فى سورية ، فأخذ طلاب الطب القدماء يسعون لدى الحكومة لتعيد فتح مدرسة الطب التى كانت بدمشق ،فاستجابت الحكومة العربيّة لهذا المطلب وقررت فتح مدرسة باسم المدرسة الطبية العربيّة فى بداية عام ١٩١٩ كما سمحت بدورة خاصة للطلاب القدامى يُؤدّون فى نهايتها امتحان التخرج فى الطّب ، وما أن انقضى عام ١٩١٩ إلا وكان فقيدنا حسنى سبح فى مقدمة الناجحين بتلك الدورة ، وكانت إجازته تحمل الرقم

(٨) وما لبث أن مارس مهنة الطّب منذ سنة ١٩٢٠ م

كانت مهنة الطّبابة التى أسرت فقيدنا بحبها فمارسها مدة سبع و ستين سنة كاملة أكبر حافز له إلى القيام ، بتدريس العلوم الطبية فى جامعة دمشق مدة خمسة وأربعين عاما عُيّن أثناءها عميدا لكلية الطب كما أُسندت إليه رئاسة الجامعة مرتين غير متباعدتين .

واقتضى التدريس فى كلية الطب من فقيدنا أنْ يستقصى كل علم كان يدرّسه كما كان يُلاحق كلّ جديد فى الطب دون كللٍ أو ملل ،متخذا من الشخوص بنفسه إلى منابع المعرفة فى البلاد الغربية بين الفينة والفينة ، ديدنا له إلى أن وافاه الأجل المحتوم ، لم يتأخر يوما عن سماع محاضرة علميّة دُعى إليها ، ولم يتوان عن الكتابة والتأليف ونقد المصطلحات واقتراح الأفضل فيها حتى آخر يوم من عمره المديد ؛ إذ كان قبل يوم واحد من انتقاله إلى الرفيق الأعلى فى مكتبه بمجمع دمشق يُعدُّ بحثا عزم على إلقائه فى مؤتمرنا هذا .

كان فقيدنا حسنى سبح مضربَ المثل بدمشق فى الوفاء لأصدقائه وبخاصة لأترابه ولداتِه ، لا يتأخر عن زيارتهم فى مساكنهم إذا ما لزم الواحد منهم بيته انزواء عن النّاس . أو لمرض ألم به ، أو قعـودا وعجزا عن تركـه رحم الله فقيدنا رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

عدنان الخطيب
عضـو المجمع من سورية